# المنتخب
# من
# الفكر الصوفي

إعداد الدكتور

**محمد أحمد لوح**

ح محمد أحمد لوح، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لوح، محمد أحمد

المنتخب من الفكر الصوفي./ محمد أحمد لوح.- الرياض، ١٤٢٩هـ

٢٠٠ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم.

ردمك: ٤ - ١٢٩٥ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - التصوف الإسلامي - نقد ٢- التصوف الإسلامي - تاريخ أ. العنوان

ديوي: ٢٦٠ ١٤٢٩ / ٥٣٩٦

ردمك: ٤ - ١٢٩٥ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ رقم الإيداع: ٩٧٥ / ١٤٢٨

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م



المؤسسة العالمية للإعمار والتنمية

مركز الدراسات

ص.ب ٦٨٢٧٥ الرياض ١١٥٢٧ - المملكة العربية السعودية

هاتف ٩٢٠٠٠٠٤٩٠ - فاكس ٤٧٣٣٣٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

الحمد لله ذي الطول والإنعام، ثم الصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد الأنام، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الحساب والجزاء.

أما بعد:

فهذه فصول منتخبة من الفكر الصوفي ارتأينا وضعها في رسالة يسهل ترجمتها إلى اللغات الأجنبية، ويخف حملها في الأسفار، وتكون في متناول أيدي الراغبين لتعم الفائدة ويُبتغى بها الأجر والثواب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وذلك تلبية لرغبة عدد من مشايخنا وطلابنا بصفة متكررة؛ فرأيت أن لا بد من الاستجابة لهذه الرغبات الكريمة وإن كان في الوقت ضيق وشح.

هذا وقد توخينا التركيز على أربعة فصول تشتد الحاجة إلى قراءتها وإتقانها؛ لأن هؤلاء الذين أماتوا عقول كثير من شباب الأمة، وقتلوا فيهم القدرة على الإبداع إنما يبنون أصولهم في الغالب على هذه المباحث على نحو مخدِّر يذهب بالعقول إلا من رحم الله وعصمه بتمسكه بحبل الكتاب والسنة.

وتدور هذه الفصول حول: عقيدة الصوفية في أقطابهم، وفي رجعة الأولياء ومقابلة النبي عليه الصلاة والسلام بعد موته، ومنهجهم في التوسل والوسيلة، وفي كرامات الأولياء، كل ذلك بأسلوب يسلك مسلك المقارنة بين

عقيدة ومنهج أهل السنة، وعقيدة ومنهج الصوفية، وسميته: «**المنتخب من الفكر الصوفي**».

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به مقيده وسائر المسلمين.

**أبو إبراهيم أ.د. محمد أحمد لوح**

# الخطة

الفصل الأول: الأقطاب والديوان القطبي في الفكر الصوفي.

الفصل الثاني: عقيدة الرجعة في الفكر الصوفي.

الفصل الثالث: التوسل والوسيلة في الفكر الصوفي.

الفصل الرابع: مقارنة المنهجين السني والصوفي في الكرامات.

# الفصل الأول

## الأقطاب والديوان القطبي في الفكر الصوفي

- بعض العقائد الصوفية المركوزة في حد القطب.
- عدد الأقطاب وصفاتهم وبعض وظائفهم.
- عدد الأقطاب وأعوانهم.
- معنى الأبدال.
- بعض مواصفات القطب وأعوانه.
- وظائف الأقطاب.
- اجتماعات الأقطاب وقراراتهم.

# الأقطاب والديوان القطبي في الفكر الصوفي

## تعريف الأقطاب في اللغة وفي اصطلاح الصوفية:

"الأقطاب: جمع قطب، والقطب لغة: ما عليه مدار الشيء وملاكه، ومنه قطب الرحى"(١).

"سمي القطب قطباً لدورانه في جهات الدنيا الأربع، كدوران الفلك في أفق السماء، وقيل: سمي قطباً لجمعه جميع المقامات والأحوال ودورانها عليه، مأخوذ من قطب الرحى، وهي الحديدة التي تدور عليها الرحى"(٢).

وفي اصطلاح الصوفية: "القطب - وقد يسمى غوثاً باعتبار التجاء الملهوف إليه -، وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان، أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، بيده قسطاس الفيض الأعم، وزنه يتبع علمه، وعلمه يتبع علم الحق، وعلم الحق يتبع الماهيات غير المجعولة، فهو يفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وهو على قلب إسرافيل من حيث حصته الملكية الحاملة مادة الحياة والإحساس، لا من حيث إنسانيته.."(٣).

"وهو الخليفة الباطن وسيد أهل زمانه، والقطب هو الغوث"(٤).

---

(١) "القاموس المحيط" مادة (قطب).

(٢) "مشتهى الخارف الجاني" (ص ٥٠٥).

(٣) "التعريفات" للجرجاني (ص١٧٧- ١٧٨).

(٤) "مشتهى الخارف" (ص٥٠٥).

وللقطب عند الصوفية نوعان:

**أحدهما**: هو المتمكن في القطبية الصغرى أو الحسية.

**والآخر**: هو المتمكن في القطبية الكبرى أو المعنوية، وهو المعبر عنه عندهم بباطن نبوة محمد أو الحقيقة المحمدية.

يقول القاشاني: "وهو - يعني القطب - إما قطب بالنسبة إلى ما في عالم الشهادة من المخلوقات، يستخلف بدلاً منه عند موته من أقرب الأبدال منه، أو قطب بالنسبة إلى جميع المخلوقات في عالم الغيب والشهادة، ولا يستخلف بدلاً من الأبدال، ولا يقوم مقامه أحد من الخلائق. وهو قطب الأقطاب المتعاقبة في عالم الشهادة لا يسبقه قطب، ولا يخلفه آخر، وهو الروح المصطفوي المخاطب بـ: لولاك لما خلقت الكون"(١).

وهذه القطبية الثانية هي التي عرفها الجرجاني فقال:

"القطبية الكبرى: هي مرتبة قطب الأقطاب، وهو باطن نبوة محمد - عليه السلام - فلا يكون خاتم الولاية، وقطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة"(٢).

وعرفها - أعني القطبانية الكبرى" الشيخ التيجاني فقال:

"واعلم أن حقيقة القطبانية هي الخلافة العظمى عن الحق مطلقاً في جميع الوجود جملة وتفصيلا، حيثما كان الرب إلهاً كان هو خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه في كل من عليه ألوهية الله - تعالى -، ثم قيامه بالبرزخية العظمى بين

---

(١ "كشف الوجوه الغر شرح ديوان ابن الفارض" (١٠٣/٢)

(٢) "التعريفات" مادة (قطب) وقارن: المنوفي "معالم الطريق إلى الله" (ص٤٢٢).

الحق والخلق؛ فلا يصل إلى الخلق شيء كائناً ما كان من الحق إلا بحكم القطب وتوليه ونيابته عن الحق في ذلك وتوصيله كل قسمة إلى محلها، ثم قيامه في الوجود بروحانيته في كل ذرة من ذرات الوجود جملة وتفصيلاً، فترى الكون كله أشباحاً لا حركة لها. وإنما هو الروح القائم فيها جملة وتفصيلاً"[1].

وقال أيضاً: "وكذلك جميع أجساد الوجود في نسبتها إلى القطب هو لها كالروح للجسد، فلو زالت روحانيته منها لانعدم الوجود كله، فهو روح الوجود، وكل خواص الوجود بأسرها على التآمها وافتراقها وعمومها وخصوصها، وإطلاقها وتقييدها كلها لا تلازم ذوات الوجود إلا بوجود روحانية القطب فيها، فإذا أزال القطب روحانيته عنها انعدم الوجود كله وصار ميتاً"[2].

ولعل شيخنا أبا بكر الجزائري أخذ تعريفه للقطب الصوفي من هذا النص بالذات حين قال: "وفي اصطلاح الصوفية: القطب: هو سيد الوجود في كل عصر، وهو للوجود بمنزلة الروح للجسد، فكما أن الجسد لا قيام له إلا بالروح، فكذلك الوجود كله قائم بالقطب، فإذا زالت روحانية القطب من الوجود انعدم الوجود كله"[3].

وفي الموسوعة العربية الميسرة إجمال التعريفات الصوفية للقطب حيث جاء فيها وصف القطب بأنه: "ذو معنيين عند الصوفية:

---

(١) "جواهر المعاني" (٢/٨٩- ٩٠).
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٦٧).
(٣) "إلى التصوف يا عباد الله (ص٤٠).

**أحدهما**: الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان، يسري في الكون سريان الروح في الجسد، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل، وقد يسمى القطب غوثاً لالتجاء الملهوف إليه، فالقطب هنا إنسان اختص بما لم يختص به غيره من الكمال.

**والمعنى الثاني**: أن يكون القطب قطباً للأقطاب سابقاً في الوجود عليهم وعلى كل ما في عالم الغيب والشهادة، والأقطاب أربعة: الدسوقي، والجيلاني[1]، والرفاعي، والبدوي[2]"[3].

## بعض العقائد الصوفية المركوزة في حد القطب:

١ - أن القطب دائر في جهات الدنيا الأربع: الشرق والغرب والجنوب والشمال، دروان الفلك في السماء.

٢ - أنه جامع لكل المقامات والأحوال.

٣ - أن القطب يسمى غوثاً لكونه ملجأ الملهوفين.

٤ - أنه موضع نظر الله في كل زمان، وأعطاه الله الطلسم الأعظم من لدنه.

(١) عبدالقادر بن موسى بن عبدالله الكيلاني أو الجيلاني، صوفي تنسب إليه الطريقة القادرية، ولد بكيلان سنة (٤٧٠هـ)، ودخل بغداد فسمع الحديث وتفقه. توفي سنة (٥٦١هـ) له "الفتح الرباني والفيض الرحماني" و"الغنية لطالبي طريق الحق" وغيرهما. انظر: "طبقات الأولياء" (ص٢٤٦)، و"شذرات الذهب" (١٩٨/٤)، و"معجم المؤلفين" (٣٠٧/٥).

(٢) هو أحمد بن علي الحسيني البدوي، صوفي ولد بفاس وطاف البلاد، وعظم شأنه في مصر وانتسب إليه جمهور كبير. توفي سنة (٦٧٥هـ) ودفن في طنطا، وله "صلوات" و"وصايا" انظر: "معجم المؤلفين" (٣١٤/١).

(٣) مادة (قطب) (١٣٨٧).

٥ - أنه هو الذي يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة، ويفيض روح الحياة على الكون من الأعلى والأسفل.

٦ - أن طبيعته مزدوجة فيه حصة ملكية تحمل مادة الحياة، وحصة أخرى بشرية.

٧ - أن للقطبية مقامين: القطبانية الصغرى، والمتمكن فيها يعمل في عالم الشهادة الحسي، إذا غاب أو مات خلف مكانه أقرب بدل منه.

القطبانية العظمى: ومجال علمه يستغرق عالم الغيب والشهادة، ولا يقوم أحد من الخلائق مقامه، ويكون على باطن خاتم النبوة.

٨ - أن القطب خليفة الله في ربوبيته (حيثما كان إلهاً كان هو خليفة) ونائبه في تصريف وتنفيذ أحكامه الإلهية، فلا يصل إلى الخلق جليل أو دقيق إلا بحكمه وتوليته ونيابته.

٩ - أن روحانية القطب جارية سارية في كل ذرة من ذرات الوجود، ولو سحبت من أي جزء من الكون، فإن الجزء يبقى شبحاً لا حركة له.

ولعلنا بهذا العرض نكون على قناعة تامة بأن الشيخ عبد الرحمن الوكيل(١) كان منصفاً وإيجابياً وغير مبالغ حين افتتح كلامه عن القطب بقوله: "أسطورة خرافية، تنزع إلى تجريد الله من الربوبية والإلهية وخلعهما على وهم باطل سمي في الفلسفة: "العقل الأول"، وفي المسيحية "الكلمة"، وفي الصوفية "القطب"(٢).

---

(١) عالم سلفي خدم العقيدة بقلمه.

(٢) "هذه هي الصوفية" (ص١٢٤).

## عدد الأقطاب وصفاتهم وبعض وظائفهم في الفكر الصوفي:

عرض هذا المطلب ودراسته يتناول ثلاث نقاط:

**الأولى: عدد الأقطاب وأعوانهم:**

أقدم من يؤثر عنه تعداد تلك الطبقة الباطنية المندسة في ثنايا الكون العلوي والسفلي كما ينص عليه الفكر الصوفي هو أبو بكر بن محمد الكتاني(١) حيث قال: "النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والأبدال أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة، فإذا عرضت حاجة ابتهل فيها النقباء، ثم النجباء، ثم الأبدال، ثم الأخيار، ثم العمد، فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث فلا تتم مسألته حتى تجاب دعوته"(٢).

هذه هي طبقاتهم التي تناقلتها الصوفية في مؤلفاتهم، وقرروها، وإن اختلفت الأسماء عند بعضهم، أو زادوا عليها أو نقصوا فإنهم جميعاً يشيرون إلى شيء واحد، وهو وجود طبقة باطنية خافية عن عامة الناس، لها مواصفات وخصوصيات ووظائف تحدد مكانة كل صنف منهم ومجال عمله الذي يظهر فيه نشاطه وما يستحقه من تقديس في الفكر الصوفي، فهم يطلقون على جميع هؤلاء لفظ "أقطاب"، لكنهم إذا أطلقوا لفظ "الغوث" أو

---

(١) هو أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني شيخ الصوفية. أخذ عن الخراز والجنيد والنوري، وأقام بمكة مجاوراً إلى أن مات بها سنة (٣٢٢هـ). انظر: "شذرات الذهب" (٢/٢٩٦).

(٢) "الطبقات الكبرى" للشعراني (١/٩٥) و"الدرة الخريدة" (١/٤٩).

"القطب" فإنهم يريدون "قطب الأقطاب"، وهو الشخصية الفذة التي لا تقاربها شخصية أخرى في النظام الصوفي، كما نلاحظ أن الأوتاد والعمد شيء واحد(١).

حتى نتأكد من اختلاف إطلاقاتهم وتنوع تعابيرهم عن هؤلاء فلنعرض بعض مقولاتهم في هذا الصدد عدا ما أُثر عن الكتاني.

لقد جعلهم الحمزاوي(٢) شارح البردة، عشر طبقات:

١ - القطب.
٢ - الإمامان.
٣ - خمسة أوتاد أو عمد.
٤ - سبعة أفراد.
٥ - أربعون من الأبدال.
٦ - سبعون من النجباء.
٧ - ثلاثمائة من النقباء.
٨ - خمسمائة من العصائب.
٩ - الحكماء أو المفدون وعددهم غير محدود.
١٠ - الرجبيون(٣).

فتعداد هذا الرجل استغرق ما عند الكتاني مع ملاحظة:

أ - أنه أطلق "الأفراد" بدل "الأخيار" باعتبار أن كلا منهما سبعة.

ب - أنه جعل الأوتاد خمسة بدل أربعة.

جـ - مع إضافة الطبقة الثانية، والثامنة، والتاسعة، والعاشرة.

---

(١) "النفحات الشاذلية" للحمزاوي (٢/٩٩) و"مشتهى الخارف الجاني" لمحمد خضر الشنقيطي (ص٥٠٩).

(٢) لم أقف على ترجمته.

(٣) "النفحات الشاذلية" (٢/٩٩) وانظر: "دائرة المعارف الإسلامية" مادة "أبدال" (١/٢٣).

أما ابن عربي فقد أشار إلى ما هو مجمع عليه عندهم فقال:

"والمجمع عليه من أهل الطريق أنهم على ست طبقات أمهات: أقطاب، وأئمة، وأوتاد، وأبدال، ونقباء، ونجباء"[١].

أما الشيخ عمر الفوتي فقد جعلهم سبع طبقات فقال:

"فأعظم الأولياء "الغوث" والثلاثة المختارون، والسبعة، ثم العشرة، ثم الأربعون، ثم السبعون، ثم الثلاثمائة، وهم البدلاء والأوتاد، والسبعون النقباء، والأربعون الخلفاء، والعشرة العلماء، والسبعة العرفاء، والثلاثة أهل المكاشفة، والغوث - أعني القطب - عليهم مثل جبل قاف، والأوتاد مفزع العامة، والنقباء مفزع الأوتاد، والخلفاء مفزع النقباء، والعلماء مفزع الخلفاء، والعرفاء مفزع العلماء، وأهل المكاشفة مفزع العرفاء، والقطب مفزع الكل"[٢].

وإذا تأملنا هذه التغييرات الجذرية التي أدخلها هؤلاء المشايخ في النظام الصوفي الباطني وطبقاته كل على حدة فإننا ننفذ إلى حصيلة علمية تفيدنا أنه لما كان للخيال الرحب حظ وافر في وضع هذا النظام وإقامة أسسه صار بدهيًّا أن يحاول كل"مجتهد" أو "مكاشف" أن يسهم بما لديه من تصورات إضافية لم يسبق إليها.

والجدير بالذكر أن القطب الصوفي واحد في كل زمان لا يتعدد في وقت واحد، فلقد صرح ابن عربي بذلك في عدة مواطن من كتابه "الفتوحات"[٣].

(١) "الفتوحات" (٢/٤٠).

(٢) "الرماح" (١/٢١) مع "جواهر المعاني".

(٣) انظر: على سبيل المثال (ج٢ ص٣٥٦).

وقال الشيخ علي الخواص شيخ الشعراني: الخلوة بالله وحده لا تكون إلا للقطب الغوث، في كل زمان، فإذا فارق هيكله المنور بالانتقال إلى الدار الآخرة انفرد الحق - تعالى - بشخص آخر مكانه لا ينفرد بشخصين قط في زمان واحد. هذه الخلوة وردت في الكتاب والسنة ولكن لا يشعر بها إلا أهل الله - تعالى - وخاصته[1].

وبحكم أن القطب في الفكر الصوفي عبارة عن سر حياة الكون وبقائه فإنه من المنطقي أن لا يخلو منه زمان، وهذه العقيدة تجبر معتنقيها على القول بوجود أقطاب منذ عهود سحيقة، ربما تصل بهم إلى النشأة الأولى.

وهذا هو ما تأكد في فكرهم، حيث إن ابن عربي الحاتمي تمكن -كما يزعم- من معرفة أسماء الأقطاب من لدن آدم -عليه السلام- إلى زمان خاتم النبيين عليه الصلاة السلام، حيث يقول: "وأما أقطاب الأمم المكملين في غير هذه الأمة ممن تقدمنا بالزمان فجماعة ذكرت لي أسماؤهم باللسان العربي لما أشهدتهم ورأيتهم في حضرة برزخية وأنا بمدينة قرطبة في مشهد أقدس، فكان منهم: المفرق، ومداوي الكلوم، والبكاء، والمرتفع، والشفاء، والماحق، والعاقب، والمنحور، وشجر الماء، وعنصر الحياة، والشريد، والراجع، والطيار، والسالم، والخليفة، والمقسوم، والحي، والرامي، والواسع، والبحر، والملصق، والهادي، والمصلح، والباقي، فهؤلاء المكملون الذين سموا لنا من لدن آدم - عليه السلام - إلى زمان محمد صلى الله عليه وآله وسلم"[2].

---

(١) "الطبقات الكبرى" للشعراني (٢/١٣٥)، و"الأنوار القدسية" له (ص٣).

(٢) "الفتوحات المكية" (٢/٣٦٢).

خمسة وعشرون قطباً تعاقبوا على كرسي إدارة العالم وحفظه وبعث الحياة فيه من عهد آدم - عليه السلام - إلى زمن محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - يذكرهم لنا رجل ظهر في القرن السادس الهجري.

هذا كله عن كبير الأقطاب أو "قطب الأقطاب" كما يسميه الفكر الصوفي.

أما غيره من أعوانه فعدد كبير كما رأيت، لكنهم - كرئيسهم - لا يصمدون أمام البحث العلمي النزيه، وقضية نفيهم وإثباتهم لا يستحق بذل الكثير من الجهد والوقت لعدم ورود ذكرهم في النصوص الشرعية المعتمدة، اللهم إلا أمر الأبدال فإن فيهم أحاديث، فليكن اهتمامنا إذن منصبّاً عليهم.

**معنى الأبدال:** في القاموس: "الأبدال: قوم بهم يقيم الله - عز وجل - الأرض، وهم سبعون: أربعون بالشام، وثلاثون بغيرها. لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس"(١).

ويقول الجرجاني: "البدلاء هم سبعة رجال، من سافر من موضع وترك جسداً على صورته حيّاً بحياته، ظاهراً بأعمال أصله، بحيث لا يعرف أحد أنه فقد، فذلك هو البدل لا غير"(٢).

وقال ابن الأثير: "أبدال الشام هم الأولياء والعباد، الواحد بدل كجمل، أو بدل كحمل، سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد بُدِّل بآخر"(٣).

---

(١) "القاموس" مادة (بدل).

(٢) "التعريفات" (ص٤٣).

(٣) "النهاية في غريب الحديث" مادة (بدل).

وقال ابن عربي: "إن ثم رجالاً سبعة يقال لهم الأبدال، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، لكل بدل إقليم، وإليهم تنظر روحانيات السماوات والأرض"[١].

وفي "المختار": "الأبدال قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم، إذا مات منهم أحد أبدل الله مكانه آخر"[٢].

"وقيل: سموا أبدالاً؛ لأنهم قد يرتحلون إلى بلد ويقيمون في مكانهم الأول شبحاً آخر شبيهاً بشبحهم بدلاً منه، بحيث إن كل من رآه لا يشك أنه هو"[٣].

تلك تعريفاتهم للأبدال، ولننظر الآن في الأخبار التي تمسَّك بها من يثبت وجود الأبدال.

## أحاديث الأبدال:

إن أشهر الأحاديث في هذا الباب ما يروى عن علي بن أبي طالب، وعبادة ابن الصامت، وعوف بن مالك، وابن عمر، وعبد الله بن مسعود، وأم سلمة، رضي الله عن الصحابة أجمعين.

أما حديث علي فقد قال عبد الله[٤] بن الإمام أحمد: حدثني أبي ثنا أبو المغيرة ثنا صفوان حدثني شريح - يعني ابن عبيد - قال: ذكر أهل الشام عند

(١) "الفتوحات المكية" (٢/٣٧٦).

(٢) "مختار الصحاح" للرازي مادة (بدل).

(٣) "مشتهى الخارف الجاني" (ص٥١٠).

(٤) هو عبدالله بن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل ولد سنة (٢١٣هـ)، لازم أباه وأكثر الرواية عنه حتى صار من أئمة الحديث. توفي سنة (٢٩٠هـ). انظر: "تذكرة الحفاظ" (ص٦٦٥) و"سير أعلام النبلاء" (١٣/٥١٦).

علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو بالعراق. فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين. قال: لا، إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: "**الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً. يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب**"(١).

هذا الحديث حكم عليه شيخ الإسلام ابن تيمية بالضعف لانقطاعه(٢).

وقال ابن القيم(٣): "ولا يصح.... فإنه منقطع"(٤).

وقال أحمد شاكر(٥): "إسناده ضعيف لانقطاعه، شريح بن عبيد الحضرمي الحمصي لم يدرك عليّاً بل لم يدرك إلا بعض متأخري الوفاة من الصحابة"(٦).

وقال الألباني: "ضعيف"(٧).

وأما حديث عبادة، فقال عبد الله: حدثني أبي ثنا عبد الوهاب بن عطاء أنا الحسن بن ذكوان عن عبد الواحد بن قيس عن عبادة بن الصامت عن

(١) "المسند" (١/ ١١٢).
(٢) "الفرقان بين الأولياء" (ص١٣- ١٤) و"مجموع الرسائل والمسائل" (١/٥٧)، و"مجموع الفتاوى الكبرى" (١١/٤٣٤).
(٣) هو العالم العلامة محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية، ولد سنة (٦٩١هـ) واشتغل بالحديث وسائر الفنون فبرع فيها، لازم شيخ الإسلام ابن تيمية بعد رجوعه من مصر سنة (٧١٢هـ) ولم يفارقه حتى مات. توفي سنة (٧٥١هـ) له مؤلفات كثيرة جداً. انظر: "البداية" (١٤/٢٣٤)، "شذرات الذهب" (٦/١٦٨)، "معجم المؤلفين" (٩/١٠٦).
(٤) المنار المنيف" (ص١٣٦).
(٥) من كبار رواد التحقيق في العصر الحديث.
(٦) " التعليق على المسند" (٢/١٧١ ح٨٩٦).
(٧) "ضعيف الجامع الصغير" (ح٢٢٦٦).

النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: "**الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن عز وجل، كلما مات رجل أبدل الله تبارك وتعالى مكانه رجلا**". قال أبي رحمه الله: فيه - يعني حديث عبد الوهاب - كلام غير هذا، وهو منكر - يعني حديث الحسن بن ذكوان[(١)].

الحديث قد كفانا الإمام أحمد رحمه الله عناء التفتيش عنه حيث قال: إنه منكر وهو راويه، وقال عنه الألباني: "ضعيف"[(٢)].

ولعبادة حديث آخر بلفظ: "**الأبدال من أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون وبهم تنصرون**". رواه الطبراني وقال الهيثمي[(٣)]: "من طريق عمر، والبزار عن عنبسة الخواص وكلاهما لم أعرفه"[(٤)].

وقال الألباني: "ضعيف"[(٥)].

أما حديث عوف بن مالك فقد ورد بلفظ: "**الأبدال في أهل الشام وبهم ينصرون وبهم يرزقون**".

قال الهيثمي: "رواه الطبراني، وفيه عمرو بن واقد. وقد ضعفه جمهور الأئمة، ووثقه محمد بن المبارك الصوري، وشهر اختلفوا فيه"[(٦)].

---

(١) "المسند" (٥/٣٢٢).

(٢) "ضعيف الجامع" (ح٢٢٦٩).

(٣) وهو علي بن أبي بكر الهيثمي، محدث حافظ، رافق العراقي في سماع الحديث، ولازمه. ولد سنة (٧٣٥هـ). وتوفي بالقاهرة (٨٠٧هـ). انظر: "شذرات الذهب" (٧/٧٠).

(٤) "مجمع الزوائد" (١٠/٦٣).

(٥) "ضعيف الجامع" (٢٢٦٧).

(٦) "مجمع الزوائد" (١٠/٦٣).

أقول: أما عمرو بن واقد قال عنه الحافظ ابن حجر: "متروك"[(١)]، وقال عن شهر - وهو ابن حوشب - : "صدوق كثير الإرسال والأوهام"[(٢)].

أما حديث ابن عمر فقد جاء بلفظ: "**خيار أمتي في كل قرن خمسمائة، والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه آخر، قالوا: يا رسول الله، دلنا على أعمالهم. قال: يعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويتواسون في ما آتاهم الله عز وجل**".

رواه أبو نعيم في الحلية[(٣)]، وذكره السخاوي وضعفه[(٤)].

أما حديث ابن مسعود: فلفظه: " **لا يزال أربعون رجلاً من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم، يدفع الله بهم عن أهل الأرض يقال لهم الأبدال، إنهم لم يدركوها بصلاة ولا بصوم ولا بصدقة. قالوا: يا رسول الله، فبم أدركوها؟: قال: بالسخاء والنصيحة للمسلمين**".

قال الهيثمي: "رواه الطبراني من رواية ثابت بن عياش الأحدب عن رجاء الكلبي وكلاهما لم أعرفه"[(٥)].

وقال الألباني: "ضعيف جدًّا"[(٦)].

(١) "تقريب التهذيب" (ت٥١٣٢).
(٢) المصدر السابق (ت٢٨٣٠).
(٣) "حلية الأولياء" (٨/١).
(٤) "المقاصد الحسنة" (ص٨).
(٥) "مجمع الزوائد" (٦٣/١٠).
(٦) "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة" (ح١٤٧٨).

وأما حديث أم سلمة فلفظه: "**يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام، فيبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه...**" الحديث.

رواه أحمد[1]، وأبو داود[2]، كلاهما من طريق صالح أبي الخليل عن صاحب له عن أم سلمة، وصاحب أبي خليل هذا لم يسم، وعليه فهو مجهول العين.

ورواه أبو داود والحاكم[3] كلاهما عن أبي خليل عن عبد الله بن الحارث عن أم سلمة، فيحتمل أن يكون عبد الله هذا هو صاحب أبي خليل المبهم في الرواية الأخرى.

لكن في إسنادهما أبو العوام، واسمه عمران بن داور القطان.

قال النسائي: "ضعيف"[4] وقال الذهبي في "التلخيص": "ضعفه غير واحد وكان خارجيّاً" [5] وذكره أيضاً في "الضعفاء"[6].

---

(١) "المسند" (٣١٦/٦).

(٢) "السنن": كتاب المهدي (٤٧٥/٤ ح٤٢٨٦)، ويلاحظ أنه الحديث الوحيد الوارد في أحد الكتب الستة في ذكر الأبدال.

(٣) "المستدرك" (٤٣١/٤).

(٤) "الضعفاء والمتروكون" ترجمة (٤٧٨).

(٥) (جـ٤ ص٤٣١) مع "المستدرك".

(٦) "المغني في الضعفاء" ترجمة (٤٥٩٦).

فيتلخص من ذلك كله ضعف إسناد هذا الحديث، كما قال الشيخ الألباني[1].

أما عبد الله محمد الصديق فقد أبعد النجعة حيث قال في تعليقاته على "المقاصد": "ومن طرقه حديث أم سلمة عند أبي داود بإسناد على شرط الشيخين"[2].

هذه أشهر أحاديث الأبدال، وتلك تعليقات علماء الحديث ونقاده على وجه التفصيل.

وفيما يأتي بعض تعليقاتهم العامة التي تنبئ عن اهتمامهم بهذه الأحاديث اهتماماً خاصاً، وقيامهم باستقراء طرقها استقراء تامّاً.

أورد الإمام ابن الجوزي[3] أحاديث الأبدال في كتاب "الموضوعات" وعلق عليها بعد سردها بأسانيدها قائلاً: "ليس في هذه الأحاديث شيء يصح"[4].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكذا كل حديث يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عدة الأولياء، والأبدال، والنقباء، والنجباء، والأوتاد، والأقطاب، ومثل أربعة، أو سبعة، أو اثني عشر، أو أربعين، أو سبعين، أو

(١) "سلسلة الأحاديث الضعيفة" (ح١٩٦٥).
(٢) "المقاصد الحسنة" (ص١٠هامش١).
(٣) هو عبدالرحمن بن علي بن محمد،المعروف بابن الجوزي، محدث حافظ، مفسر فقيه، واعظ. ولد ببغداد سنة (٥١٠هـ) وتوفي بها سنة (٥٩٧). له تصانيف كثيرة جدّا. انظر: "البداية (٢٨/١٣)، و"شذرات الذهب" (٣٢٩/٤)، و"معجم المؤلفين" (٥/ ١٥٧).
(٤) (جـ٣ ص١٥٢).

ثلاثمائة، أو ثلاثمائة وثلاثة عشر، أو القطب الواحد، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ "الأبدال"، وروي فيه أنهم أربعون رجلاً وأنهم بالشام، وهو في "المسند" من حديث علي، وهو حديث منقطع ليس بثابت. ومعلوم أن عليّا ومن معه من الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام، فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي"[(١)].

هذا وجه آخر يؤكد ضعف الخبر بل وبطلانه؛ لأن كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستحيل أن يتعارض مع ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

وقال الحافظ ابن القيم: "أحاديث الأبدال، والأغواث، والنقباء، والنجباء، والأوتاد، كلها باطلة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم"[(٢)].

وقال الحافظ السخاوي[(٣)]: "حديث الأبدال له طرق عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً بألفاظ مختلفة كلها ضعيفة"[(٤)].

ثم ساق تلك الأحاديث عن أنس وغيره وقال في آخرها: " ... إلى غير ذلك من الآثار الموقوفة وغيرها، وكذا من المرفوع مما أفردته واضحاً بيّناً معللاً في جزء سميته "نظم اللآل في الكلام على الأبدال"[(٥)].

(١) "الفرقان بين الأولياء" (ص١٣- ١٤) و"مجموع الرسائل والمسائل" (٥٧/١).
(٢) "المنار المنيف" (ص١٣٦).
(٣) هو محمد بن عبدالرحمن، ولد بالقاهرة سنة (٨٣١هـ) وأصله من سخا (من قرى مصر) فقيه، مقرئ، مؤرخ، توفي بالمدينة سنة (٩٠٢هـ) تآليفه كثيرة جدّا. انظر: "البدر الطالع" (١٨٤/٢)، "شذرات الذهب" (١٥/٨)، و"معجم المؤلفين") (١٥٠/١٠).
(٤) "المقاصد الحسنة" (ص٨ح٨).
(٥) "المقاصد الحسنة" (ص١٠).

ويبدو لي أن مما يؤكد ضعف خبر الأبدال اضطرابه، حيث ورد في بعض الروايات أنهم ثلاثون، وفي بعضها أنهم أربعون، وفي بعضها أنهم أربعون رجلاً وأربعون امرأة، إلى غير ذلك من أوجه الاضطراب الذي أحرج الصوفية، فطرقوا كل باب لمحاولة الجمع بينها.

قال محمد الخضر الشنقيطي: "في بعض الروايات: إن الأبدال ثلاثون، وهذا يعارض ما في الأحاديث الأخر من كونهم أربعين، فذكر الزرقاني[1] في "شرح المواهب": أنه يجمع بين الأحاديث بأن الثلاثين منهم قلوبهم على قلب إبراهيم، والعشرة ليسوا كذلك، وهذا يعارضه حديث "لا يزال أربعون رجلاً من أمتي على قلب إبراهيم".

ثم قال - يعني الزرقاني -: "والأولى في الجمع بين الأحاديث أن الإخبار بالثلاثين كان قبل أن يعلمه الله بالأربعين".

ولعل الشنقيطي أحس هنا بأن هذا من باب الإخبار، والأخبار لا يدخلها النسخ. فقال: "الظاهر في الجمع بين الأحاديث هو أنهم سبعون: أربعون بالشام، وثلاثون في غيرها، فحديث الأربعين يعني الذين بالشام، وحديث الثلاثين يعني غير من في الشام"[2].

والحقيقة أن هذا الجمع مأخوذ من تعريف صاحب القاموس للأبدال. وهو أيضاً لا يسلم من الطعن، حيث إن هناك حديثاً آخر يقول: "**البدلاء**

---

(١) هو محمد بن عبدالباقي الزرقاني، محدث، فقيه، متصوف، ولد بالقاهرة سنة (١٠٥٥هـ) وتوفي بها سنة (١١٢٢هـ) له "إشراق مصابيح السير المحمدية بمزج أسرار المواهب اللدنية" وغيره. انظر: "معجم المؤلفين" (١٠/١٢٤).

(٢) "مشتهى الخارف الجاني" (ص٥١٣).

**أربعون: اثنان وعشرون بالشام، والثمانية عشر بالعراق...** "الحديث. رواه ابن عدي[1] عن أنس.

وبهذا نخلص إلى أن هذه الأحاديث باطلة سنداً ومتناً، لا يصلح مثلها في تقرير عقيدة ولا شريعة.

والغريب أن الذين يتمسكون بهذه الأخبار ويستدلون بها في إثبات الأبدال عامتهم من الأشاعرة الرافضة لأخبار الآحاد في المسائل العقدية، حتى وإن كانت تلك الأخبار من أصح الصحيح. وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على اضطراب منهج هؤلاء الناس في كل شيء.

## بعض مواصفات القطب وأعوانه في الفكر الصوفي:

إن من يتأمل في تعريفات الصوفية للأقطاب ليكاد يخرج بقناعة تامة على أنهم يخرجون به عن نطاق البشرية، ويحلقون به في عالم الربوبية والألوهية، لكننا حتى نزيد الأمر وضوحاً وجلاء فلا بد من أن نوضح هنا بعض المواصفات التي يضفيها الفكر الصوفي على القطب مع تحليل ما يحتاج إلى التحليل من ذلك، على أن نرجئ المناقشة إلى مطلب خاص يأتي في ذيل هذا المبحث.

**الصفة الأولى:** أن القطب لا يخفى عليه شيء في الدنيا والآخرة.

نقل عبد الوهاب الشعراني عن أبي الحسن الشاذلي[2] أنه ذكر للقطب

(١) "الكامل" (٥/ ٢٢٠).

(٢) هو علي بن عبدالله الشاذلي الضرير، صوفي، فقيه، شاعر، تنسب إليه الطريقة الشاذلية التي تشعبت منها طرق كثيرة مثل: الوفائية، والزروقية، والبكرية، والجزولية. قصد الحج فمات بالصحراء سنة (٦٥٦هـ) له مصنفات في التصوف؛ وفروع الفقه المالكي. انظر: "طبقات الأولياء" (ص٤٥٨) و"بغية المستفيد" (ص٧٥) و"معجم المؤلفين" (١٣٧/٧).

خمس عشرة علامة، من بينها: أن يُمد بمدد العصمة[1]، والرحمة، والخلافة، والنيابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم الإحاطة بكل علم ومعلوم ما بدا من السر الأول إلى منتهاه"[2].

ونقل عن الجيلي أنه قال: "إن للقطابة ستة عشر عالماً إحاطيّا، الدنيا والآخرة ومن فيهما عالم واحد من هذه العوالم، وهذا الأمر لا يعرفه إلا من اتصف بالقطبية"[3].

نلاحظ في هذه النصوص من المخاطر ما يأتي:

١ - أن القطب يكشف له عن حقيقة الذات الإلهية فيراها، وهذا الأمر وإن كانوا يكتمونه أحياناً ويمتنعون من إفشائه فهي عقيدتهم، وسيأتي مزيد بيان لها، وأنهم يعبرون عنها بالمشاهدة.

٢ - أن القطب يحيط علمًا بصفات الله تعالى.

٣ - أن علم القطب لا حدود له، لا من جهة الزمان. حيث يعلم حكم ما قبل وما بعد، وما لا قبل له ولا بعد، ولا من جهة المكان، حيث إن الدنيا والآخرة جزء فقط من ستة عشر جزءاً من علومه، بل له الإحاطة بكل علم ومعلوم.

---

(١) لم نعد العصمة صفة مستقلة للأقطاب؛ لأنها قليلة بالنسبة لما وصف به القطب، ولأننا خصصنا مبحثاً يتناول عصمة الأولياء ممن هم دون القطب.

(٢) "اليواقيت والجواهر" (٢/٧٨).

(٣) "درر الغواص" (ص١٤)، و"اليواقيت والجواهر" (٢/٨١).

**الصفة الثانية:** أن القطب له الإحاطة بالشريعة وإن كان أميًّا:

لم يكن من سلف الأمة الإسلامية - أهل القرون المفضلة - من ادعى لنفسه الإحاطة بالشريعة الإسلامية، ولم ينقل - فيما نقل - عن أحد منهم أنه ادعاها - أعني الإحاطة - لغيره ممن سبقه أو عاصره، وحياتهم العملية التي تنقلها لنا أوثق المصادر لا تشير إلى وجود مثل هذه الطبقة الفذة التي لا تخفى عليها خافية من أمور الشريعة، بل على العكس من ذلك، وجدنا الرعيل الأول من جيل الصحابة فضلاء الأمة بعد نبيها، يختلفون في مسائل فيسافرون إلى من يبلغهم أن عنده علماً بها، وربما توقفوا في مسائل لعدم توفر الدليل، وربما استفتى كبارهم مَنْ دونهم في العلم والسن.

ومع هذا فإننا نجد في دواوين الفكر الصوفي التي حدثتنا عن أقطاب التصوف أدق وصف وأعمقه، فألبستهم من ألبسة الألوهية ألواناً زاهية، حيث نجد فيها دعاوي عريضة من قبيل ما ذكرنا من أن القطب لا يعزب عنه شيء على وجه العموم والإطلاق، فكان نقل نصوص صوفية عامة قاضية بذلك في هذا الصدد كافياً في البرهنة على أنهم يذهبون إلى القول بأن الأقطاب يحيطون بالشريعة ما دام لا يخفى عليهم شيء؛ لأن الشريعة لا تخرج عن كونها شيئاً من الأشياء، لكننا وجدنا أنهم أفردوا الحديث عن الإحاطة بالشريعة في نصوص خاصة توضح عنايتهم بهذا الجانب باعتباره إسكاتاً لأهل السنة الذين كثيراً ما تكون مواقفهم تجاه الصوفية وأقطابهم موقف الرد والإنكار، فيقولون لهم: ليس لكم أن تنكروا علينا معتمدين على نصوص شرعية وقفتم عليها، وتناقض ما نحن عليه؛ لأن نصوصكم هذه قد تكون مخصصة أو مقيدة أو مبينة أو منسوخة؛ وذلك لا ينفي وجودها إلا من أحاط

بعلم الشريعة، وأنتم تعترفون أنكم لا تحيطون بها، أما أقطابنا وأولياؤنا وأغواثنا فهم أهل ذلك وذووه، فلا تنكروا علينا ما دامت الحال على هذا.

وإليك الآن مقتطفات من نصوصهم في هذا الصدد:

- يقول عبد العزيز بن مسعود الدباغ: "ولن يحيط بالشريعة إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والكُمَّل من ورثته كالأغواث في كل زمان"(١).

وهذا النص ذاته نقله الفوتي من "الإبريز" بعد أن بين ووضح المقصود الأساس من إيراد مثله وهو إسكات الخصوم والحيلولة بينهم وبين الإنكار على "أهل الحقيقة" حيث قال:

"وإذا وصلت إلى هنا علمت أنه لا يسوغ الإنكار على أهل الحقيقة إلا لمن أحاط بالشريعة، ولا يحيط بها إلا النبي صلى الله عليه وآله وسلم والكمّل من ورثته كالأغواث في كل زمان"(٢).

ويوضح الفوتي ناقلاً عن ابن المبارك أيضاً إمكانات هؤلاء وخصائصهم التي جعلتهم يحيطون بالشريعة فيقول: "اعلم - وفقك الله - أن الولي المفتوح عليه يعرف الحق والصواب، ولا يتقيد بمذهب من المذاهب، ولو تعطلت المذاهب بأسرها لقدر على إحياء الشريعة، وكيف لا وهو الذي لا يغيب عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم طرفة عين، ولا يخرج عن مشاهدة الحق جل جلاله لحظة، وحينئذ فهو العارف بمراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبمراد الحق جل جلاله في أحكامه التكليفية وغيرها، وإذا كان كذلك فهو حجة على غيره وليس غيره حجة عليه"(٣).

---

(١) "الإبريز" (ص٢١٧).

(٢) "الرماح" (٨٩/١).

(٣) المصدر السابق (٨٨/١).

إذن من خصائص هذا النوع من الأولياء أنهم لا ينفكون يرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل لا يفتؤون يشاهدون ربهم في كل لحظة، وما دام أمرهم كذلك فهم أحق بمعرفة مراد الله ورسوله في كل مسألة؛ نظراً لطول الملازمة - تعالى الله عما يقولون علوّا كبيراً.

**نلاحظ هنا:**

١ - أن هذه العبارة تتضمن عقيدتين في إمكان رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة ووقوعها، إلا أن هذا النص يعبر عن نوع خاص من الرؤية وهو عدم مفارقته لحظة ليل نهار، وهو ما أكده التيجاني حين سئل عن قول أبي العباس المرسي: "لو حجب عني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين" فقال: "إن هذه الخصوصية ليست للمرسي وحده، وإنما هي لقطب الأقطاب في كل وقت منذ جلوسه على كرسي القطبانية، لا تقع بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجابية أصلاً، وحيثما جال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حضرة الشهادة إلا وعين قطب الأقطاب متمكنة من النظر إليه، لا يحجب عنه في كل لحظة من اللحظات"(١).

٢ - أنها تبين أيضاً عقيدتهم في رؤية الحق سبحانه وتعالى في الدنيا وهي التي يسمونها "المشاهدة" أو "شهود الذات" مبالغة في التكتم

(١) "جواهر المعاني" (٢/٧١).

والتستر؛ ولذلك يعرفونها بعبارات موهمة أحياناً، كما حد الجرجاني الشهود بقوله: "هو رؤية الحق بالحق"[(١)].

لكن بعض المتحررين منهم والذين لم يجدوا أنفسهم مضطرين لتغطية عقيدتهم في مثل هذه الأمور قد أفصحوا عنها بكل وضوح، فهذا أبو العباس الحرار[(٢)] يسرد نسبه من العزير وموسى وإبراهيم ومحمد - عليهم الصلاة والسلام - ثم يقول: "وأما نسبتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فالرؤية لله تعالى، أشهدني نفسه وقال: انظر هل تجد محلاً للزوجة والولد؟ قلت: لا وعزتك يا رب"[(٣)].

وهذا الشيخ إبراهيم نياس يقول: "وحقيقة المشاهدة رؤية الحق عيانا"[(٤)].

ومن نصوصهم المبينة لعقيدتهم في إحاطة الأقطاب بالشريعة قول التيجاني: " فإن شريعتنا التي بأيدينا لم يحيطوا بأحكامها إلا الأفراد من الكُمّل وهم أقطاب هذه الأمة"[(٥)].

ومنها قوله: "ولا يحيط بمعرفة أحكام الشريعة وجميع العلوم التي يحتاجها الناس إلا الفرد الجامع؛ لأنه هو الحامل للشريعة في كل عصر ولو كان أمّيّاً لم تسبق له قراءة"[(٦)].

---

(١) "التعريفات" مادة (شهد).

(٢) هو أبو العباس بن أبي بكر التجيبي، منشؤه بإشبلية، صوفي من أصحاب أبي مدين المغربي، كان بينه وبين ابن عربي مكاتبات جاء في بعضها قول ابن عربي له: "يا أخي أخبرني بما تجدد لك من الفتح". لم يذكر الخزرجي تاريخ موته. انظر: "سير الأولياء" (ص٢١- ٤٩).

(٣) "سير الأولياء في القرن السابع الهجري"للخزرجي (ص٢٦).

(٤) "السر الأكبر" (ص٤١٩) مع التحقيق.

(٥) "جواهر المعاني" (١/٢١٣).

(٦) المصدر السابق (٢/٨٥).

بل يذهب علي الخواص إلى أبعد من ذلك فيجعل كل من له قدم في طريق القوم محيطاً بالشريعة، فيقول: "من لم يبلغ درجة الإحاطة بعلوم الشريعة فليس له في طريق القوم قدم؛ لأنها كلها طريق غيب غير محسوس للناس، وما تميز الفقراء على الفقهاء إلا بهذه الطريقة فأحاطوا علمًا بأحكام الشريعة وأسرارها"[(١)].

ومما يؤسف له أن بعض الدعاة المعاصرين الذين نهلوا من المناهل الصوفية - بالرغم من بعض مواقفهم الإيجابية في رد جملة من الفكر الصوفي الساقط - لم يستطيعوا التخلص من هذه العقيدة الباطلة، فيقول الشيخ سعيد حوى[(٢)] - وهو يذكر الدور الذي يجب أن يضطلع به الشيخ الصوفي في التربية والتعليم - : "وهذا لا يتأتى للشيخ إذا لم يكن عالماً في الكتاب والسنة، قادراً على تربية النفس البشرية، محيطاً بعلوم الإسلام والثقافة الإسلامية، عارفاً بعصره وبالتاريخ"[(٣)].

**الصفة الثالثة:** أن القطب - في فكرهم - أفضل جماعة المسلمين:

لا خلاف بين أهل السنة والجماعة في أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هم أفضل الأمة بعد نبيها، وأن قرنهم الذي عاشوا فيه هو أفضل القرون، فلا يتصور - عقلاً ولا شرعاً - أن يأتي بعد جيلهم من يبلغ قدرهم أو يقارب مرتبتهم، بل إن المتقدمين من الصحابة لهم الفضل والخيرة على المتأخرين من طبقتهم فكيف بمن يأتي بعدهم بقرون؟

---

(١) "درر الغواص" (ص٦٣) مع "الإبريز".

(٢) كاتب صوفي معاصر له كلمات جيدة في بيان عوار الفكر الصوفي لكنها قليلة.

(٣) "تربيتنا الروحية" (ص٢٢٥).

وأدلتهم على ذلك كثيرة جدّاً كتاباً وسنة: قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ..﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولا يستطيع أحد أن يشهد لأحد بعد جيلهم بأن الله رضي الله عنه على وجه الثقة واليقين.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "**لا تسبوا أصحابي فلو أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**" متفق عليه[١].

فإذا كان الخطاب في هذا الحديث موجهاً لبعض متأخري الإسلام من الصحابة في حق المتقدمين، فإن توجهه إلى غير الصحابة ممن يأتي بعدهم يكون من باب أولى.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: "**خير الناس** - وفي رواية: **خير أمتي** - **قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...**" الحديث. متفق عليه[٢].

هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة في أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) البخاري: في فضائل الصحابة، باب قول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم-: "لو كنت متخذاً خليلاً" (٣/١٢ ح٣٦٧٣)، ومسلم: في فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة (١٩٦٧/٤) كلاهما من حديث أبي سعيد. وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة.

(٢) البخاري: فضائل الصحابة، باب فضل أصحاب النبي-صلى الله عليه وآله وسلم- (٣/ ٦ح٣٦٥٠ و٣٦٥١). ومسلم: في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة (١٩٦٤/٤) كلاهما من حديث عمران بن حصين. ورواه البخاري أيضاً من حديث ابن مسعود.

أما المتصوفة فنجد في فكرهم أنهم يجعلون أقطابهم على رأس قائمة الممتازين عندهم، كما تتحدث مصادرهم الموثوقة، وربما ساووهم بالأنبياء أو رفعوهم فوقهم على غرار ما فعلوا مع خاتم أوليائهم.

وفيما يأتي بعض أقاويلهم في هذا الصدد:

- يقول الشيخ علي بن محمد وفا: "ولا شك أن الصديقية في ضمن نظام القطبانية؛ لأنها من مراتب دائرتها... القطب مظهر نور الحق على الكمال الممكن لنوع الإنسان، بحسب زمانه ودائرته، والصديق مظهر نور القطب على الكمال الممكن لمثله"(١).

قلت: من المعلوم - عند أهل الحق - أن الصديقية أعلى مقام يمكن أن يصل إليه الكمال البشري المجرد عن النبوة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: "صعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أُحدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف، فقال: **اسكن أحُد** - أظنه ضربه برجله - **فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان**" رواه البخاري(٢).

ففي هذين النصين الكريمين بيان لمرتبة الصديق، وأنها دون مرتبة النبوة - التي هي أعلى المراتب - وفوق مرتبة الشهادة.

---

(١) الطبقات الكبرى (٢/٢٧).

(٢) البخاري: في فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان (٣/١٩ ح٣٦٩٩).

وفي الحديث أيضاً بيان لمرتبة أبي بكر، وأنها الصديقية، وورد هذا البيان كذلك في غير هذا الحديث، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: "**لا يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو خائف أن لا يقبل منه**" رواه الترمذي[١]، وابن ماجة[٢]، وأحمد[٣]، وحسنه الألباني[٤].

ولا نعرف في الأمة الإسلامية من وقع له مثل هذا التصريح بنصوص شرعية غيره رضي الله عنه، أضف إلى ذلك أن الأئمة أجمعوا على تسميته بالصديق.

قال النووي: "وأجمع الأئمة على تسميته صديقاً، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن الله هو الذي سمى أبا بكر على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، صديقاً"[٥].

وبالرغم من هذا كله أبى منظرو الفكر الصوفي إلا أن يجعلوا الصديقية مرتبة ضمن مراتب القطبية، والصديق مظهر نور القطب بينما القطب مظهر نور الحق تعالى.

---

(١) "الجامع" (٣٢٧/٥) ح٣١٧٥).
(٢) "السنن" (١٤٠٤/٢ ح٤١٩٨).
(٣) "المسند" (٢٠٥/٦).
(٤) الصحيحة" رقم: "١٦٢" و"تخريج الطحاوية" (ص٣٦٦) هامش (١).
(٥) تهذيب الأسماء واللغات" (١٨١/٢).

وعلى هذا فلن تبقى هناك أي غرابة إذا وجدنا الشعراني يترجم لأبي بكر "الصديق" في (١٦) سطراً من طبقاته، بينما يترجم لعلي بن محمد وفا "القطب" في (٤٣) صفحة[١].

■ سأل الشعراني شيخه عليّا الخواص عن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من كان حالفاً فليحلف بالله..."[٢] وقد أقسم الله تعالى بمخلوقاته في أماكن كثيرة فهل ذلك مناقضة؟ فقال: معاذ الله أن يكون شيء من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مناقضاً للقرآن، ولكن التحقيق أن للعارف بالله تعالى أن يقسم بكل معلوم لشهوده أنه تعالى مع كل شيء"[٣].

في هذا النص الصوفي بيان لخصوصيات العارفين من الصوفية، وأن مقاماتهم أعلى من مقامات الصحابة، حتى وإن كان الصحابي أحد الخلفاء الراشدين.

ووجه ذلك: أن سبب ورود هذا الحديث هو أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حلف بأبيه، فنهاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فقول الخواص: إن للعارف بالله - تعالى - أن يقسم بكل معلوم، معناه أن عمر لم يبلغ مرتبة العارف بله مرتبة القطب؛ لأن القطب فوق العارف بمراتب.

وإذا تقرر أنهم جعلوا أقطابهم على رأس القائمة وتركوا كبار الصحابة وفضلاءهم قابعين في ذيلها، علمنا أنهم يقدمون الأقطاب على من دون

(١) ترجمة أبي بكر الصديق (جـ١ص١٧- ١٨)، وترجمة علي بن محمد (جـ٢ص٢٢- ٦٥).
(٢) البخاري: الشهادات، باب كيف يستحلف؟ (٢/ ٢٦١ ح٢٦٧٩) وغير هذا الموضع، ومسلم: في الأيمان، باب:النهي عن الحلف بغير الله تعالى (٣/ ١٢٦٧).
(٣) "الجواهر والدرر" للشعراني (ص١٨١).

الصحابة من باب أولى، إلا أنهم لم يكتفوا بذلك حيث صرحوا بأن القطب أفضل جماعة المسلمين.

■ يقول التيجاني: "وليس في خلق الله عز وجل كلها عموماً وإطلاقاً من بعد الأنبياء من البشر والملائكة، من يتأتى منه أن يصل إلى مقدار ألف جزء من تقوى قطب الأقطاب ولو بلغ ما بلغ، فهو أفضل جماعة المسلمين في كل عصر إلا ما كان من مفاتيح الكنوز، فهو أفضل منهم في أمور، وهم أفضل منه في أمور"(١).

ولا تظن أن قوله: "ليس في خلق الله عز وجل كلها عموماً وإطلاقاً من بعد الأنبياء": تقديم منه للأنبياء على الأقطاب؛ لأنه إنما نفى أن يكون في خلق الله تعالى من يصل إلى مقدار ألف جزء من تقوى القطب غير الأنبياء، أما الأنبياء فإنهم يتأتى منهم الوصول إلى المقدار المذكور.

أما مفاتيح الكنوز الذين ذكرهم هنا وأقر بأنهم يفضلون على الأقطاب في أمور فإنه لم يتحفنا بشيء آخر عنهم، غير أنه تراجع وسحب ذلك التفضيل فزعم أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عن مفاتيح الكنوز وقطب الأقطاب أيهما أعلى مرتبة عند الله تعالى؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "هو أعلى منهم في مقامات ومراتب، أورثه الله التجلي الكامل المحيط بالتجليات كلها، وأورثه الله الاسم الأعظم بجميع إحاطته"(٢).

- ومما يؤكد أنه لا يقدم النبوة على القطبية قوله: "فليس يظهر الكمال صورة ومعنى وحسّاً بريئاً من النقص بكل اعتبار إلا في ثلاث مراتب

(١) "جواهر المعاني" (١/ ٢٦٦).

(٢) "جواهر المعاني" (٢/٨٩).

فقط لا ما عداها، وهي: الرسالة لمن دخل حضرتها، والنبوة لمن دخل حضرتها، والقطبية لمن دخل حضرتها، فإن هذه الثلاثة لا صورة للنقص فيها"[١].

- فهذا صريح في التسوية بين المراتب الثلاث.

وقال الخواص: "وأكمل الخلق في كل عصر القطب"[٢].

**الصفة الرابعة:** أن مرتبة القطب لا حدود لها:

إن من الصعب جدًّا تصور المرتبة التي هيأتها الصوفية لقطبها، وهذه الصعوبة ليست نابعة من علو تلك المرتبة فحسب، لكن الصعوبة تكمن في خلطهم بين تلك المواصفات وبين قولهم إنه بشر؛ ذلك لأن البشرية حدودها معروفة، وطاقاتها محدودة، وصفاتها معلومة ملازمة للضعف والنقص على ما تقرر في الكتاب والسنة.

فلنستمع إلى الشيخ التيجاني وهو يقرب مرتبة القطب بأسلوبه المميز حيث يقول:

"وكل عارف على قدر مرتبته في هذا الميدان - ميدان المعارف الإلهية - إلا القطب فإنه محيط بجميع المراتب أيًّا كان حتى مراتب الملائكة... فله جميع المراتب، وله الاستيلاء على جميع المراتب، وله الذوق في جميع المراتب، وله الإحاطة الشاملة في جميع المراتب، وله المنع والعطاء في جميع المراتب"[٣].

---

(١) المصدر السابق (١/١٥٧).

(٢) "الطبقات الكبرى" للشعراني (٢/١٣٩).

(٣) "جواهر المعاني" (٢/١٠٦- ١٠٧).

وقال أيضاً: "ومما أكرم الله به قطب الأقطاب أن يعلِّمه علم ما قبل وجود الكون وما وراءه، وما لا نهاية له، وأن يشهده الذات، وأن يعلمه علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات -وهي الأسماء العالية-، وأن يخصصه بأسرار دائرة الإحاطة، وجميع فيوضه، وما احتوى عليه"[(١)].

■ وذكر الشيخ إدريس بن الأرباب أن درجات الولاية ثلاث:

١ - الصغرى: أن يمشي على الماء وينطق بالمغيبات.

٢ - الوسطى: أن يقول للشيء: كن فيكون.

٣ - والعليا: هي القطبانية[(٢)].

تلك إذن مرتبة القطب في الفكر الصوفي، وأحسب أن من المستحيل على معتنقي فكرة الأقطاب تحديدها، وفصلها عن مراتب الألوهية، حتى ولو أجابوا بألف جواب وجواب، وكان بعضهم لبعض ظهيراً.

**الصفة الخامسة:** بصر القطب:

بيّن الدباغ النسبة بين قوة البصر وقوة البصيرة، فذكر أن بصر العين جزء من (٣٦٦٠٠٠) جزء من البصيرة، ثم نفذ من ذلك إلى القول بأن القطب الغوث يبصر بجميع أجزاء بدنه التي تتوزع فيها تلك الأجزاء الباقية بعد الجزء الخاص بالبصر. وإليك عباراته:

"إن نظر البصيرة ثلاثمائة ألف وستة وستون ألْف جزء. جزء واحد منها في نظر العين، والباقي من الأجزاء في ذات العارف الكامل، فينظر بذاته كما

(١) المصدر السابق (٢/٨٧- ٨٨).

(٢) انظر: "طبقات ابن ضيف الله" (ص٢٠٦).

ينظر أحدنا بعينه، ولكن نظره بمجموع الأجزاء كلها، وهذا لا يكون إلا لرجل واحد - يعني به الغوث الذي تحته الأقطاب السبعة"[1].

**الصفة السادسة:** ذوات القطب!:

قطب الصوفي مخزن كل غريب، ومصدر كل طريف وعجيب، ومخترعوه يلبسونه من أثواب الغرابة والطرافة كل ما وصلت إليه مخيلتهم، فهاهم يجعلون له من الذوات ما يساوي عدد أيام السنة، أي: أنه يخرج كل يوم بجسد جديد.

يقول ابن المبارك:"سألته - يعني شيخه الدباغ - عن الولي الذي تكون له ثلاثمائة وستة وستون ذاتاً فقال: هو الوارث الكامل يعني الغوث فقط، فقلت: ومورثه صلى الله عليه وآله وسلم له مائة وأربعة وعشرون ألف ذات (١٢٤٠٠٠) فما بال الغوث لم يرثها كلها؟ فقال: لا يطيق أحد ما يطيق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى الوراثة في الغوث أنه لا ذات شربت من ذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من ذاته"[2].

أقول: ليتهم اكتفوا بوصف أقطابهم ولم يتناولوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتمزيق جسده الشريف وتجزئته إلى ذلك العدد، والله تعالى يقول له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] فهو وسائر الناس في البشرية سواء وتبقى خصوصيته في الوحي.

**الصفة السابعة:** أن القطب لا يطيق رؤيته إلا الخواص:

---

(١) "الإبريز"(ص٣٤٩).

(٢) "الإبريز" (ص٣٠١). عبدالله بن مسعود الدباغ.

يحدث الشيخ عثمان الحطاب[١] فقال: "لما حججت مع سيدي أبي بكر الدقدوسي[٢] سألته أن يجمعني على القطب، فقال: "اجلس ههنا" ومضى فغاب عني ساعة ثم حصل عندي ثقل في رأسي فلم أتمالك حملها حتى لصقت لحيتي بعانتي، فجلسا يتحدثان بين زمزم والمقام ساعة... وانصرفا ثم رجع سيدي أبو بكر فقال: ارفع رأسك. فقلت: لا أستطيع... فقال: ياعثمان هذا حالك وأنت ما رأيته، فكيف لو رأيته؟"[٣].

أقول: أما المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وكبار صحابته فقد كانوا يجلسون مع عامة الناس بل ومع الأعراب الأجلاف يخاطبونهم فيعلمونهم أمور دينهم، ولم يزل ذلك دأب السلف الصالح والذين يقتفون آثارهم إلى يومنا هذا.

أما ذلك الكائن الموصوف بهذه الصفات العجيبة فمقامه فوق المقامات، وأسراره لا تتطرق إليها العقول: فأولى به أن يختفي وراء الستار، ولا يمكِّن أحداً من رؤيته إلا الخواص الذين عرفوا ما الذي يجري وراء الكواليس وماذا يدبر المدبرون لسلب عقول وإيمان السذج والمغفلين.

ويبدو أن هؤلاء كانوا على ذكاء خارق حيث وضعوا هذه الحواجز المنيعة أمام القطب حتى لا تكرر مطالبات المريدين لمقابلته، فإن في ذلك فضحاً للفكرة وأي فضح!.

---

(١) هو عثمان الحطاب أحد أصحاب أبي بكر الدقدوسي، كان من المبالغين في التقشف، مات بعد سنة (٨٠٠هـ) في طريقه لزيارة القدس. انظر: الطبقات الكبرى (٢/٩٤).

(٢) هو الشيخ أبو بكر الدقدوسي، صوفي غال كثير الأصحاب، كان يقر بعض أصحابه على بيع الحشيش. من رجال القرن الثامن. انظر: الطبقات الكبرى (٢/٩٣).

(٣) الطبقات الكبرى (٢/٩٤).

**الصفة الثامنة:** نسب القطب:

يبدو أن المواصفات العجيبة، والخصائص المهولة التي وصف بها الصوفية قطبهم، رغَّب الكثير من المتعصبين لأنسابهم في تَبَنِّي القطب، فاشترطوا انتسابه إليهم، إلا أن جماعة منهم لم يرضوا بهذا الشرط، وجعلوا الباب مفتوحاً والأمر مشاعاً لكل الأجناس والأنساب.

يسأل الشعراني شيخه الخواص: "فهل يختص القطب بكونه لا يكون إلا من أهل البيت؟ فقال: لا يشترط ذلك، ولعل من اشترط ذلك كان شريفاً فتعصب لنسبه"(١).

**التاسعة:** بلد القطب:

سئل الخواص عن القطب الغوث: هل هو مقيم دائماً بمكة كما قيل؟

فقال: "... قلب القطب دائماً طواف بالحق الذي وسعه كما يطوف الناس بالبيت، فهو... وجه الحق تعالى في كل وجهة كما يستقبل الناس البيت ويرونه من كل جهة، إذ مرتبته....التلقي عن الحق تعالى جميع ما يفيضه على الخلق. وهو بجسده حيث شاء الله من الأرض. واعلم أن أكمل البلاد البلد الحرام، وأكمل البيوت البيت الحرام، وأكمل الخلق في كل عصر القطب، فالبلد نظير جسده والبيت نظير قلبه"(٢).

---

(١) "درر الغواص" (ص٩٦).

(٢) "الطبقات الكبرى " للشعراني (١٣٩/٢) وفي هذا رد على ما تلقاه القوم من كثير من أئمتهم حيث جعلوا مكة مقر إقامة القطب كما في نص الكتاني السابق.

تلك جملة من المواصفات التي اختص بها الفكر الصوفي قطب الأقطاب، سردناها من أوثق مصادرهم، وهي بالجملة صفات لم يوصف بها - فيما أعلم - مخلوق آخر، فيظهر أن القطب في فكرهم إله آخر شارك الإله الحق في أخص صفات الألوهية والربوبية، فلم يبق في حقه إلا أن يصرحوا بأنه يستحق العبادة، ولعل هذا ما أحس به أبو العباس المرسي فلمَّح به قائلاً: "لو كان الحق سبحانه وتعالى يرضيه خلاف السنة، لكان التوجه في الصلاة إلى القطب الغوث أولى من التوجه إلى الكعبة"(١).

هذا وقبل الانتقال إلى الحديث عن بعض الوظائف الإدارية التي يقوم بها أقطاب الصوفية، نود أن نورد هنا نصين صوفيين فيهما استثناء غريب في بابه، حيث إن رجلين صوفيين ادعى كل واحد منهما أنه تجاوز مقام القطبية.

أما النص الأول فيحكيه الشعراني في قوله: إن شخصاً من تلاميذ الرفاعي قال له: "يا سيدي أنت القطب؟ فقال: نزه شيخك عن القطبية. فقال له: أنت الغوث؟ فقال: نزه شيخك عن الغوث". قال الشعراني: "وفي هذا دليل على أنه تعدى المقامات والأطوار؛ لأن القطبية والغوثية مقام معلوم"(٢).

وأما النص الآخر فقول الشيخ التيجاني: "نسبة الأقطاب معي كنسبة العامة مع الأقطاب. وقال: "روحي تمد الأقطاب والعارفين والأولياء من الأزل إلى الأبد"(٣).

---

(١) "الطبقات الكبرى" للشعراني (٢/ ١٣).

(٢) المصدر السابق (١/١٢٣).

(٣) "الرماح" (٢/ ١٤) مع "الجواهر".

إن كان من تعليق أقول: قارن بين هذا وبين قوله: "وليس في خلق الله عز وجل كلها عموماً وإطلاقاً من بعد الأنبياء من البشر من يتأتى منه أن يصل إلى مقدار ألف جزء من تقوى القطب ولو بلغ ما بلغ. فهو أفضل جماعة المسلمين"[1] تَرَ كيف أن التناقض والاضطراب هما السمة المميزة للكلام الذي يصدر عن الهوى.

**النقطة الثالثة: وظائف الأقطاب في الفكر الصوفي:**

تناولنا فيما سبق عدد الأقطاب وبعض مواصفاتهم، وفيما يأتي نتناول بعض وظائفهم كما تقرره مصادر الفكر الصوفي المعتمدة، وتكون دراستنا لهذه القضية على وجه الإيجاز، علماً بأن هناك مباحث قادمة تتعلق ببعض النشاطات التي يباشرها عامة أولياء الصوفية ويشاركهم فيه الأقطاب إما بالمباشرة أو بالتأهل باعتبارهم أعلى مرتبة من غيرهم.

أما وظائفهم في الفكر الصوفي فأكثرها يدخل ضمن التصرف في الكون والتأثير في حوادثه، إلا أن ذلك التصرف يمكن تقسيمه إلى قسمين حسب ما هو مقرر في نصوصهم.

**القسم الأول:** التصرف المطلق الشامل: وفي هذا القسم نجد أن المتمكن في مرتبة القطبية - عندهم - يكون له التصرف التام غير المحدود، والتصريف الجاري النافذ في كل شيء، ومن نصوص هذا القسم قول

(١) "جواهر المعاني" (٢٦٦/١).

ابن عربي بعد أن ذكر مقام القطبية: "ولأصحاب هذا المقام التصريف والتصرف في العالم"[1].

وكذلك قول التيجاني: "الخليفة له التصرف العام والحكم الشامل التام في جميع المملكة الإلهية، وله بحسب ذلك الأمر والنهي، والتقرير والتوبيخ، والحمد والذم على حسب ما يقتضيه مراد الخليفة سواء كان نبيًّا أو وليًّا مستوون في هذه المرتبة"[2].

ومن ذلك قول الشعراني: "إن الله تعالى جعل هذه الأرض التي نحن عليها سبعة أقاليم، واصطفى من عباده المؤمنين سبعة سماهم الأبدال، وجعل لكل بدل إقليماً يمسك الله وجود ذلك الإقليم به"[3].

**القسم الثاني:** التصرف المقيد:

ينبغي أن نشير هنا إلى أنه ليس المراد بالتصرف المقيد هنا أن يكون القطب - في الفكر الصوفي - غير قادر على التصرف خارج المجال الذي يتقيد بالتصرف فيه، بل الأهلية المطلقة موجودة مقررة بمجرد تبوئه مرتبة القطبية كما يزعمون، فنحن إذن نعدد جملة من الوظائف التي يباشر فيها كل قطب صوفي نشاطاته متى شاء، بالتقييد للوظائف، لا لقدرات أصحابها.

**وأول هذه الوظائف:** التصرف في أمر البحر:

(١) "الفتوحات المكية" (٣/٢٥٧).

(٢) "جواهر المعاني" (٢/٨٨).

(٣) "اليواقيت" (٢/٨٣) وانظر تقسيم الأقاليم السبعة في مقدمة ابن خلدون (ص٩٢- ١٢٢).

سرد ابن المبارك عدداً من الشيوخ الذين ورث سرهم الشيخ عبد العزيز الدباغ فقال: "وسيدي منصور بن أحمد[1]... وكان أيضاً يتصرف في أمر البحر"[2].

**الوظيفة الثانية:** أنه لا يجري في عالم المخلوقات شيء إلا بإذن القطب، حتى ولو كان جريانه في القلوب:

يقول صاحب "جواهر المعاني": "يقول بعض الكبار: إني أرى السماوات السبع والأرضين السبع والعرش داخلاً في وسط ذاتي، وكذا ما فوق العرش من السبعين حجاباً، وفي كل حجاب سبعون ألف عام، وبين كل حجاب وحجاب سبعون ألف عام... وكذا ما فوق الحجب السبعين من عالم الرقّا[3]، فكل هؤلاء المخلوقات لا يقع في فكرهم شيء فضلاً عن جوارحهم إلا بإذن صاحب الوقت، أعني به القطب. قال راوي الجواهر معلقاً: "وهذه المرتبة أعطاها الحق له - يعني التيجاني - لكونه خليفة عنه"[4].

**الوظيفة الثالثة:** وقاية المريدين من السؤال والحساب في الآخرة:

هنا يتحدث أحمد بن المبارك فيقول: "شكوت له - يعني شيخه الدباغ وهو قطب من أقطابهم - ذات يوم أمراً نزل بي في ضرر في الدين والدنيا لا تؤمن

---

(١) هو منصور بن أحمد، صوفي كبير يقدسه الدباغ حتى قال: إنه، أي إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، يطلب الدعاء من منصور هذا. لم أعرف تاريخ موته. انظر: "الإبريز" (ص٢٤٣).

(٢) المصدر السابق (ص٢٤٣).

(٣) يطلق الصوفية "عالم الرقّا" على ما فوق الحجب السبعين. المصدر السابق (ص١٨٩- ١٩٠).

(٤) "جواهر المعاني" (٢/٨٩).

غائلته، فقال لي: "... أما في الدنيا فلا تخش منه أبداً، وأما في الآخرة فأنا أتكفل لك على الله تعالى أنك لا تُسأل عن هذا الأمر ولا تحاسب عليه"(١).

نلاحظ هنا أن ابن المبارك لم يصرح بماهية هذا الأمر الخطير على الدين والدنيا والذي لا تؤمن غائلته، لكن شيخه طمأنه وتكفل له بأنه لن يتعرض بسببه للمسائلة والمحاسبة، وفي ذلك تشجيع له على الإقدام على مقارفة العظائم ما دامت عقيدتهم تنص على أن الشيخ هو الكفيل المانع والدرع الواقي من مواجهة السائلين وأصحاب الحقوق.

**الوظيفة الرابعة:** أن القطب هو الدينمو - المحرك - لكل عابد:

"إن القطب في كل عصر له وجهة إلى كل ذرة من الموجودات يمدها ويقومها ذرة ذرة، فما من ساجد سجد لله تعالى في الوجود، أو راكع لله، أو قائم لله تعالى أو متحرك تحرك لله تعالى، أو ذاكر ذكر الله تعالى بأي ذكر في جميع الوجود إلا فالقطب في ذلك هو المقيم له، فبه سبح المسبح، وبه عبد العابد، وبه سجد الساجد"(٢).

هذه الوظيفة من أخطر الوظائف التي ينوطها الصوفية بقطبها، حيث يدير جوارح الناس ويقود توجهاتهم.

ولاحظ ما في تعريف الطرفين من قوله "هو المقيم" وما في تقديم المعمول من قوله: "فبه سبح"، "وبه عبد" من قصر وحصر.

---

(١) "الإبريز" (ص٣٣٨).
(٢) "جواهر المعاني" (١/٢٦٦- ٢٦٧).

**الوظيفة الخامسة:** توجيه قلوب الناس إلى عبادة غير الله:

قد يبدو العنوان غريباً لأول وهلة، حينما يقال: إن من وظائف القطب توجيه القلوب إلى عبادة الصالحين كالاستغاثة بهم وذكرهم والحلف بهم، لكن هذه الغرابة تتلاشى إذا عرفنا أن هؤلاء الناس المتعلقين بأهداب الأولياء الصارفين لهم كثيراً من حقوق الله تعالى، إنما يفعلون ذلك بإيعاز من رؤساء الديوان الصوفي.

سئل الدباغ: "لم كان الناس يستغيثون بذكر الصالحين دون الله عز وجل، فترى الواحد إذا جهد في يمينه يقول: احلف لي بسيدي فلان... وإذا قيل لهم توصلوا بالله أو احلفوا به أو نحو ذلك لا يقع ذلك الكلام منهم موقعاً، فما السبب في ذلك؟ فأجاب بأن: "أهل الديوان من أولياء الله فعلوا ذلك عمداً لقوة الظلام في الذرات... وأولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سيدهم وخالقهم سبحانه أن تكون ذواتهم طاهرة... فلو توجهت الذات الظلمانية إليه تعالى بجميع عروقها وبكل جواهرها وسألته أمراً ومنعها له ولم يطلعها على سر القدر - لأن الاطلاع عليه لا يكون إلا للأولياء - في المنع لربما وقع لها وسواس في وجود الحق، فتقع فيما هو أدهى وأمر... فكان من المصلحة ما فعله أهل الديوان من ربط عقول الناس بعباد الله الصالحين؛ لأنه إذا وقع لهم وسواس في كونهم أولياء فإن ذلك لا يضرهم"[(١)].

وأخيراً ليس هذا كل وظائف الأقطاب، لكننا اكتفينا بما ذكرنا إيثاراً للإيجاز وإشارة إلى أن المقصود حاصل به، ألا وهو البرهنة على وجود هذه الوظائف الخطرة للأقطاب في الفكر الصوفي.

(١) "الإبريز" (ص١٦٣- ١٦٤).

## اجتماعات الأقطاب وقرارتهم:

## الديوان القطبي وتنظيماته:

لأولياء الله حكومة خفية، يرون أن عليها يتوقف نظام العالم، ورئيس مجلس هذه الحكومة الأعلى يدعى "القطب" وهو - كما تقرر مصادرهم - أرفع صوفية عصره درجة، وإليه رئاسة الاجتماعات التي يعقدها في انتظام مجلس شوراه الموقر، وهو صاحب القرار الأول والأخير فيه، وأعضاء هذا المجلس لا يعوقهم عن الحضور حواجز الزمان والمكان، فهم يأتون من أرجاء الأرض في لمحة البصر أو أقرب، يعبرون البحار والجبال والصحارى في يسر بالغ، كما يسير عوام البشر في السهل الممهد، ودون رئيس هذا المجلس يحضر طبقات ودرجات مختلفة من الأولياء[1] الأساسيين والمتطفلين أيضاً.

وفي السطور القادمة نذكر بعض التفاصيل حول هذا المجلس طبقاً لما تنص عليه مصادر الصوفية.

### أولاً: مكان الديوان وترتيبات انعقاده:

يقول الدباغ: "الديوان يكون بغار حراء... فيجلس الغوث خارج الغار، ومكة خلف كتفه الأيمن، والمدينة أمام ركبته اليسرى، وأربعة أقطاب عن يمينه، وهم مالكية على مذهب مالك بن أنس رضي الله عنه وثلاثة أقطاب عن يساره واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة، والوكيل أمامه - يعني الغوث - وفي هذا الوقت مالكي أيضاً... واسمه محمد بن عبد الكريم البصراوي[2]، ومع

(١) انظر: "الصوفية في الإسلام لنيكولسن" (ص١١٩).

(٢) لم أجده في طبقات المالكية.

الوكيل يتكلم الغوث؛ ولذلك سمي وكيلاً لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان، والتصرف للأقطاب السبعة على أمر الغوث، وكل واحد من الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته... ويحضره النساء وعددهن قليل وصفوفهن ثلاثة في جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار"(١) "وتحضره الملائكة... ويحضره أيضاً الجن الكمّل... وفائدة حضور الملائكة والجن أن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها، وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها فيستعينون بالملائكة وبالجن في الأمور التي لا تطيق ذواتهم الوصول إليها"(٢).

"إن في كل مدينة من المدن عدداً من الملائكة... يكونون موجودين عوناً لأهل التصرف من الأولياء فيما لا تطيقه ذات الولي، وهؤلاء الملائكة... يكونون على هيئة بني آدم"(٣).

وسئل الدباغ هل يكون الديوان في موضع آخر غير غار حراء؟ فقال: نعم يكون في موضع يقال له: "زاوية أسا" خارج أرض سوس بينها وبين أرض غرب السودان، فيحضره أولياء السودان ومنهم من لا يحضر الديوان إلا في تلك الليلة... ولا يجتمع نحو العشرة منهم في موضع قط إلا في الموضعين السابقين؛ لأن الأرض لا تطيقهم"(٤).

(١) "الإبريز" (ص١٨٣).
(٢) المصدر السابق (ص١٨٤).
(٣) المصدر السابق (ص١٨٥).
(٤) المصدر السابق (ص١٩٠).

وباعتبار الدباغ من أهل المغرب وهم مالكية المذهب يبدو أن التعصب المذهبي لعب دوراً كبيراً في هذا التوزيع الإداري، حيث عين من المالكية أربعة أقطاب من جملة المساعدين البالغ عددهم سبعة، وجعل منهم أيضاً الوكيل الذي هو أكبر شخصية بعد الغوث، ثم حدد مجلس السيدات الحاضرات مواجهاً لمجلس الأقطاب الثلاثة الذين يمثلون المذاهب الأخرى. وأما أقطاب المالكية فلورعهم ونزاهتهم فالأولى أن يجعلهم بعيدين عن هذا النوع من الاختلاط المشبوه.

**ثانياً: وقت انعقاد المجلس:**

قال: "وفي تلك الساعة - يعني قبيل الفجر - يجتمع أهل الديوان من أولياء الله تعالى من سائر أقطار الأرض، وفيهم الغوث والأقطاب السبعة وأهل الدائرة والعدد... ويكون اجتماعهم بغار حراء خارج مكة، وهم الحاملون لعمود نور الإسلام، ومنهم تستمد جميع الأمة"[١].

والعجيب أن الدباغ بعد أن قرر أن غار حراء هو قاعة مؤتمراتهم عاد يقول مفخماً مرتبته: " إيش هو الديوان والأولياء الذين يقيمونه كلهم في صدري"[٢].

"إنما يقام الديوان في صدري"[٣].

(١) "المصدر السابق" (ص١٠٨).
(٢) المصدر السابق (ص١٨٨).
(٣) المصدر السابق (ص١٨٨).

**ثالثاً: النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الأربعة والحسن والحسين وأمهما أعضاء في الديوان أيضاً:**

يقول الدباغ الذي تولى شرح أحوال هذه الحكومة: "وإذا حضر سيد الوجود مع غيبة الغوث فإنه يحضر معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وأمهما فاطمة الزهراء رضي الله عنهم"[1].

**رابعاً: والموتى أيضاً يحضرون الديوان:**

يقول أيضاً: "ويحضره - يعني الديوان - بعض الكمّل من الأموات ويكونون في الصفوف مع الأحياء ويتميزون بثلاثة أمور:

- **أحدها:** أن زيهم لا يتبدل بخلاف زي الحي وهيئته... فإذا رأيت في الديوان رجلاً على زي لا يتبدل فاعلم أنه من الموتى، كأن تراه محلوق الشعر لا ينبت له شعر، واعلم أنه على تلك الحالة مات...
- **ثانيها:** أنه لا تقع معهم مشاورة في أمور الأحياء؛ لأنهم لا تصرف لهم فيها...
- **ثالثها:** أن ذات الميت لا ظل لها، فإذا وقف الميت بينك وبين الشمس فإنك لا ترى له ظلاً... وكم مرة أذهب إلى الديوان أو إلى مجمع من مجامع الأولياء وقد طلعت الشمس فإذا رأوني من بعيد استقبلوني فأراهم بعين رأسي متميزين هذا بظله وهذا لا ظل له"[2].

---

(١) المصدر السابق (ص١٩٠).

(٢) "الإبريز" (ص١٨٤).

قلت: لا أدري أ نصدق الدباغ في ذهابه إلى الديوان؟ أم في كون الديوان وأوليائه في صدره؟ أم أن كونه في صدره يعني أن هذه التقريرات كلها في كيسه وخياله لا في الخارج، وهو الأقرب.

**خامساً: ويحضر الديوان بعض المتطفلين!:**

يقول الدباغ: "وليس كل من يحضر الديوان يعرف ما فيه وما دخل وما خرج وما زاد وما نقص".

ويقول ابن المبارك معلقاً على كلام شيخه وموضحاً إياه: "كأنه بمثابة مجالس العلم فليس كل من يحضرها يعرف ما فيها"[(١)].

**سادساً: اللغة الرسمية لأهل الديوان:**

يقول الدباغ: "وسيدي عبدالله البرناوي[(٢)] كان يحسن السريانية أكثر لمخالطته أهل الديوان؛ فإنهم لا يتكلمون إلا بها"[(٣)].

ويقول: "إن اللغة السريانية هي لغة الأرواح وبها تتخاطب الأولياء من أهل الديوان فيما بينهم لاختصارها وحملها المعاني الكثيرة التي لا يمكن أداؤها بمثل ألفاظها في لغة أخرى"[(٤)].

ويظهر من تصريحات الدباغ في الإبريز أنه كان مولعاً باللغة السريانية؛ فجعلها لغة أفضل الأولياء عنده، كما جعلها لغة الأرواح والملائكة بل ولغة آدم

(١) المصدر السابق (ص٢٤٤).
(٢) لم أقف على ترجمته.
(٣) "الإبريز" (ص١٢١).
(٤) "الإبريز" (ص١١٩وص١٨٨).

عليه السلام ولغة أهل الجنة ولغة الأطفال قبل أن يفصحوا، اسمع إليه يقول: "والسريانية هي لغة آدم عليه السلام التي كان يتكلم بها بعد نزوله من الجنة لأنها كلام أهل الجنة"(١).

وقال: "سؤال القبر بالسريانية؛ لأنها لغة الملائكة والأرواح، ومن جملة الملائكة ملائكة السؤال، وإنما يجيب الميت عن سؤالهما بروحه وهي تتكلم بالسريانية"(٢).

"وحتى الصبيان يتكلمون بالسريانية قبل أن يقع التبديل من قبل ذويهم"(٣).

**سابعاً: الموضوعات التي يتباحثون حولها:**

يجمل لنا عبد العزيز الدباغ مضمون الجدول الدائم لأعمال مؤتمرات الأقطاب فيقول: "إذا اجتمعوا فيه اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله من الغد، فهم يتكلمون في قضاء الله تعالى في اليوم المستقبل والليلة التي تليه، ولهم التصرف في العوالم كلها السفلية والعلوية وحتى في الحجب السبعين، وحتى في عالم الرقّا وهو ما فوق الحجب السبعين، فهم الذين يتصرفون فيه وفي أهله وفي خواطرهم وما تهجس به ضمائرهم، فلا يهجس في خاطر واحد منهم شيء إلا بإذن أهل التصرف، وإذا كان هذا في عالم الرقّا الذي هو فوق الحجب السبعين التي هي فوق العرش فما ظنك بغيره من العوالم... ويضيف الدباغ: إن القط لا يأكل الفأر إلا بإذنه هو"(٤).

(١) المصدر السابق (ص١٢٠).
(٢) المصدر السابق (ص١٢١).
(٣) المصدر السابق (ص١٢٠- ١٢١).
(٤) "الإبريز" (ص١٨٩- ١٩٠).

معنى هذا أنه لا يصح أن ينسب إلى أحد شيئاً من الأقوال والأفعال حسنها وقبيحها غير حكام هذه الدولة الباطنية، وأن الله - سبحانه وتعالى عما يزعمون علوّاً كبيراً - لم يبق له فعل يفعله ما دام هؤلاء قد نازعوه ملكه وتمكنوا من الاستيلاء. نعوذ بالله من الوقاحة والجرأة على الله والقول عليه بلا علم.

**ثامناً: بعض سلوكيات أهل الديوان:**

كان المنتظر من هذه الزمرة الممتازة والنخبة المختارة التي تمثل أقطار الدنيا في ذلك المجلس النيابي الموقر كما يصوره الفكر الصوفي أن تكون على مستوى مسؤولياتها؛ فتكون مثالية في أخلاقها وسلوكها، غير أننا نجد أن هؤلاء لا يتحلون بمثل هذه الأخلاقيات، فبعض تصرفاتهم - حتى في أثناء انعقاد الديوان - يدل على قلة صبرهم وعدم تحليهم بضبط النفس، وأن من صفاتهم التعصب الأعمى والاستبداد بالرأي، وعدم احترام آراء الآخرين ومصالحهم؛ مما يؤدي بهم إلى التقاتل في أثناء انعقاد مجلسهم وسفك الدماء وإزهاق الأرواح.

وهذا قل أن يقع من النواب العاديين في المجالس الدنيوية؛ لأنهم على الأقل يحترمون أنفسهم ويقدرون الاتجاهات المخالفة - ولو صوريّاً - ويحرصون على إبقاء هيبة المجلس.

لنستمع الآن إلى الدباغ الذي يزعم أنه حضر غير ما مرة الديوان القطبي ليحكي بعض مشاهداته قائلاً: "قد يغيب الغوث عن الديوان فلا يحضره فيحصل بين أولياء الله تعالى من أهل الديوان ما يوجب اختلافهم؛ فيقع منهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضاً، فإن كان غالبهم اختار أمراً وخالف

الأقل في ذلك فإن الأقل يحصل فيهم التصرف السابق فيموتون جميعاً، وقد اختلفوا ذات يوم في أمر فقالت طائفة منهم قليلة: إن لم يكن ذلك الأمر فلنمت، فقالت الطائفة الكثيرة: فموتوا إن شئتم! فماتت الطائفة القليلة، فإن تكافأ الفريقان حصل التصرف فيهما جميعا"(١).

معنى هذا أنه ما من مجلس ديواني - بغياب الرئيس - ينعقد إلا ويخلف ضحايا من القتلى!

هذا مجمل عقيدة الصوفية في الأقطاب وتصوراتهم لأشخاصهم ودورهم في إدارة العالم سقناها من أوثق مصادرهم مع مناقشتها مناقشة ضمنية موجزة.

وفيما يلي وقفات عاجلة تجاه بعض الجزئيات التي تحتاج إلى مزيد من المناقشة:

١ - سئل شيخ الإسلام عن القطب وحكومته الباطنة، فكان من بين ما أجاب به: "أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل "الغوث" الذي بمكة، و"الأوتاد الأربعة" و"الأقطاب" السبعة" و"الأبدال الأربعين" و"النجباء الثلاثمائة" فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى ولا هي مأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإسناد صحيح، ولا ضعيف يحمل عليه، إلا لفظ الأبدال فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد"(٢).

(١) "الإبريز" (ص١٨٩- ١٩٠).
(٢) "مجموع الفتاوى" (١١/٤٣٣- ٤٣٤).

٢ - أن عقيدتهم في أن كل ولي عندهم قد وكل بتصريف جانب من جوانب الخلق: فأربعة أولياء يمسكون العالم من الجوانب الأربعة ويسمون الأقطاب، وسبعة أولياء آخرون كل واحد منهم مشرف على قارة من قارات الأرض السبع ويسمون البدلاء، وعدد آخر من الأولياء عين في كل إقليم من مصر والشام والعراق وهكذا، وكل واحد من هؤلاء قد وكل إليه التصريف في شيء ما، حتى عدوا منهم من وكل برعاية الحيتان في قيعان البحار، وبرعاية الكلاب والحيات، وأن فوق هؤلاء الأولياء جميعاً ولي واحد هو موضع نظر الله ويسمى "القطب" أو "الغوث" هو الذي يدبر شأن الملك كله سماواته وأرضه، وأن جميع أولياء عصره يكونون تحت أمر وطوع إشارته، وحتى الملائكة والجن فإنهم في خدمة هؤلاء ينفذون أوامرهم ويخضعون لمشيئتهم، هذه العقيدة عقيدة محدثة مخترعة، وهي أجنبية عن الإسلام، ولا تمت من قريب أو بعيد بصلة للولاية الإسلامية القرآنية"(١).

٣ - أنهم جعلوا القطب أفضل جماعة المسلمين وأرفع رتبة من الصديق، وهذا بطلانه ظاهر بما علم من نصوص الكتاب والسنة " فإن الله جعل الذين أنعم عليهم أربعة: النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فغاية من بعد النبي أن يكون صدّيقاً، كما كان خير هذه الأمة بعد نبيها صديقاً، ولهذا كانت غاية مريم ذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥](٢).

(١) انظر: "الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة" (ص٢٢٣).

(٢) انظر: "مجموع الفتاوى" (١١/٣٦٤).

٤ - أنهم جعلوا الأقطاب متسلسلين عبر تاريخ الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى آخر أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، حتى قال ابن عربي: إنه اطلع على هؤلاء جميعاً وعرف أسماءهم مترجمة إلى العربية وقد سبق. والرد على هذا أن يقال: فمن كان القطب في زمن إبراهيم عليه السلام حين كان الناس كفاراً، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]. أي مؤمناً وحده، وفي حديث أبي هريرة أنه قال لسارة: "يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك" متفق عليه[١]. فإذا كان إبراهيم هو القطب فأين الأبدال والأوتاد والنجباء؟

وإن زعموا أنهم نشؤوا بعد رسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ففي أي زمان كانوا؟ ومن أول هؤلاء؟ وبأي آية، وبأي حديث يستدلون؟[٢] حتى يخالفوا قطبهم (ابن عربي) الذي يقول بأنهم كانوا موجودين منذ زمن آدم عليه السلام.

٥ - أن جعلهم القطب وأعوانه وسائط لا يصل إلى الخلق شيء من الرزق والنصرة على الأعداء ونحوهما إلا عن طريقهم يلزم منه أن يرزق الله سبحانه الكفار وينصرهم على عدوّهم بالذات بلا واسطة، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات، ولا شك أن التعظيم في عدم

(١) البخاري: أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:١٢٥] ، (٤٦١/٢ ح٣٣٨٥). ومسلم: الفضائل- باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وآله وسلم (١٨٤٠/٤).

(٢) انظر: "مجموع الفتاوى" (٤٣٦/١١- ٤٣٧).

الواسطة(١).

يقول شيخ الإسلام: "من فسر "الأربعين الأبدال" بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل، بل النصر والرزق يحصل بأسباب من آكدها دعاء المؤمنين وصلاتهم وإخلاصهم، ولا يتقيد ذلك لا بأربعين، ولا بأقل ولا بأكثر"(٢).

٦ - أن عقيدتهم في أن الأوتاد مفزع العامة، والنقباء مفزع الأوتاد ... إلى قولهم: القطب مفزع الكل، عقيدة باطلة، فليس هناك مخلوق يستحق أن يكون مفزعاً للخلق يرفعون إليه حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم ونزول الرحمة إليهم، بل كان المشركون - مع شركهم وبعدهم عن الله - إذا جاءهم الفزع استجابوا للفطرة ودعوا الله وحده، كما قال تعالى: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...**﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال شيخ الإسلام: "وأما .... عن القطب الغوث الفرد الجامع فهذا يقوله طوائف من الناس ويفسرونه بأمور باطلة، مثل تفسير بعضهم أن الغوث هو الذي يكون مدد الخلائق بواسطته في نصرهم ورزقهم، حتى يقول: إن مدد الملائكة وحيتان البحر بواسطته، فهذا من جنس قول

(١) المصدر السابق (١١/٤٣٧).
(٢) المصدر السابق (١١/٤٤٢).

النصارى في المسيح عليه السلام، والغالية في علي رضي الله عنه، وهذا كفر صريح يستتاب منه صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإنه ليس من المخلوقات لا ملك ولا بشر يكون إمداد الخلائق بواسطته"[1].

٧ - أما عقيدة بعضهم في أن القطب مسكنه مكة، فالجواب:

أولاً: إن هذا باطل لا أصل له في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولا قاله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها ولا من المشايخ المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم.

وثانياً: معلوم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كانوا خير الخلق في زمنهم وكانوا بالمدينة ولم يكونوا بمكة[2].

ومثل ذلك يقال في تسكينهم الأبدال بالشام، فإن الإيمان كان بالحجاز واليمن قبل فتح الشام، وكان الشام والعراق دار كفر[3]، فهل كانوا قبل إسلامهم يرزقون بغير واسطة، ولما دخلوا في الإسلام صار يأتيهم رزقهم بواسطة؟ ألا ساء ما يحكمون.

---

(١) رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور لابن تيمية (ص٦٢- ٦٣) وهذا التأثر بالرافضة هو ما أكده ابن خلدون (المقدمة ص٥٩٢).

(٢) رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور (ص٦٤).

(٣) "مجموع الفتاوى" (١١/٤٤١)

# الفصل الثاني

## عقيدة الرجعة في الفكر الصوفي

**مظاهر عقيدة الرجعة في الفكر الصوفي.**

**فيه توطئة وخمسة مطالب:**

- **المطلب الأول:** اعتقاد التمكن من مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته يقظة.
- **المطلب الثاني:** اعتقاد أنه صلى الله عليه وآله وسلم يحضر بعض اجتماعات الصوفية.
- **المطلب الثالث:** اعتقاد أنه صلى الله عليه وآله وسلم ما زال يعطي بعض المعارف والتشريعات لمن يشاء من العباد.
- **المطلب الرابع:** اعتقاد التمكن من مقابلة الموتى غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.
- **المطلب الخامس:** بطلان عقيدة الرجعة ومقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته يقظة.

**توطئة:**

إن الناظر في التراث الصوفي ومصادره الأصلية يكشف مدى تأثر الصوفية بالرافضة في عقائدهم - في العصمة وعلم الغيب - وغير ذلك من المذاهب المدونة - في كتبهم.

أما عقيدة الرجعة التي نحن بصدد دراستها فيبدو أن الصوفية أخذوها من الرافضة ووافقوهم عليها تماماً بتمام، بل وزادوا عليهم في ذلك؛ لأن الرافضة جعلوا الرجعة خاصة بأشخاص معينين معروفين عندهم بأعيانهم وأسمائهم، وأما حملة الفكر الصوفي فقد اعتقدوا رجعة كثير ممن يعتقد الشيعة رجعتهم، ثم فتحوا الباب للجميع، فكل من ظهر لهم أنه ولي وصار له أتباع فإن الموت لا يقطع الصلة بينه وبين أتباعه ولا يحول بينه وبين الإيحاء إلى أصحابه متى أراد، ويستنكف الكثير منهم عن إطلاق لفظ «الموت» على الشيوخ نظراً لتأصل هذا المعتقد في قلوبهم، فيطلقون ألفاظاً تناسبه، كقولهم «اختفى الشيخ سنة كذا» أو «حج السنة الفلانية» ونحوهما.

ومما يلفت النظر في هذا الصدد أن عقيدتهم في علي بن أبي طالب وفي المهدي لا تختلف عن عقيدة الشيعة في شيء: فإذا كانت الشيعة تعتقد أن علياً رضي الله عنه لم يمت وأنه سيرجع فإننا نجد في نصوص الفكر الصوفي نظير هذا الاعتقاد.

يقول الشيخ علي بن محمد وفا: "علي بن أبي طالب رضي الله عنه رفع كما رفع عيسى عليه السلام وسينزل كما ينزل عيسى عليه السلام" نقله الشعراني وعلق عليه بقوله: "وبذلك قال سيدي علي الخواص..."[1].

(١) الطبقات الكبرى (٢/٣٩).

وإذا كانت الشيعة تعتقد في مهديها أنه غائب في السرداب وأنه سيعود، فإن ما يماثل ذلك موجود في الفكر الصوفي أيضاً، فيقول الشيخ أفضل الدين في جوابه لما سئل عن مرتبة المشايخ الظاهرين في مصر في القرن العاشر الجالسين في الزوايا: "وقد اجتمع بعض مشايخنا بالمهدي عليه الصلاة والسلام وأخبره بوقت ظهوره"[١].

ومعلوم أن المهدي المنتظر الذي ورد ذكره في الأحاديث النبوية الصحيحة لم يولد في ذلك الوقت فلا يحصل الاجتماع به، فتعين أن يكون قصدهم مهدي الشيعة الذي ينتظرون خروجه من السرداب.

ولكي أبيّن مدى إيغال الصوفية في اعتقاد الرجعة فلا بد من عقد عدة مطالب تتضح منها مظاهر هذا الاعتقاد في فكرهم المدون:

**المطلب الأول:** اعتقاد إمكان مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته يقظة:

يرى جماهير الصوفية القدامى وكافة المتأخرين منهم أن مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته أمر ممكن وواقع، بل يصرح بعضهم بأنه عليه الصلاة والسلام لم يمت، فيقول أبو العباس القصاب[٢]: "لم يمت محمد، وإنما الذي مات هو استعدادك لأن تراه بعين قلبك"[٣].

---

(١) "جواب أفضل الدين" (ص١٠٤) مع " الإبريز".

(٢) لم أقف على ترجمته بعد البحث.

(٣) "تذكرة الأولياء" (١٨٥/٢) قارن " في التصوف الإسلامي وتاريخه" (ص ١٦٥).

وراح كثير منهم ينظر للطرق والأساليب التي يسلكها الصوفي حتى تتأتى له رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة، فينقل الفوتي عن محمد بن عبد الكريم السمان قوله: "وأوصيك بدوام ملاحظة صورته ومعناه ولو كنت في أول الأمر متكلفاً في الاستحضار فعن قريب تألف روحك فيحضرك صلى الله عليه وآله وسلم عياناً وتحدثه وتخاطبه فيجيبك ويحدثك ويخاطبك فتفوز بدرجة الصحابة وتلحق بهم" [1]. ومعنى ذلك أنه يمكن أن يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق عملية رياضية نفسية بتركيز الفكر على صورته حتى تألف الروح تلك الصورة فيحضر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ونظيره قول الدباغ: "لكل شيء علامة وعلامة إدراك العبد مشاهدة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة أن يشتغل الفكر بهذا النبي الشريف اشتغالاً دائماً بحيث لا يغيب عن الفكر ولا تصرفه عنه الصوارف ولا الشواغل، فتراه يأكل وفكره مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويشرب وهو كذلك، ويخاصم وهو كذلك وينام وهو كذلك... فإذا دام العبد على هذا مدة رزقه الله تعالى مشاهدة نبيه الكريم ورسوله العظيم في اليقظة.

ومدة الفكر تختلف فمنهم من تكون له شهراً، ومنهم من تكون له أقل، ومنهم من تكون له أكثر[2].

أقول: إذا كان المراد بتركيز الفكر اشتغاله بتذكر صفاته الكريمة وأخلاقه المجيدة واستحضار هديه في كل ما يأتيه المسلم أو يذر فقد بلغ الصحابة

(١) "الرماح" (١/٢٢٦).
(٢) "الإبريز" (ص ٢٩٤).

رضي الله عنهم في ذلك مبلغاً لا يبلغه غيرهم ولم يدع أحد منهم أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقظة بعد موته عليه الصلاة والسلام، وأما إذا كان المراد استحضار الذات المجردة فهذا غلو وتجاوز، إذ المطلوب مراقبة المولى عز وجل بصفاته عند الحركة والسكون فتنتج التقوى، ومراقبة أعمال المكلف هل هي وافقت سنة المصطفى أم لا.

وهذه العملية الرياضية - التي تتم بتركيز الذهن على الشيء المعين - غالباً ما يجرونها في الأماكن الخالية المظلمة، الأمر الذي يؤدي إلى تدوخات تصحبها تصورات فاسدة تظهر وكأنها حقائق واقعية، وهي لا تعدو كونها عبارة عن كلل ذهني بسبب التركيز المستمر، مع انهيار عصبي ونفسي سببه الجوع الطويل والعزلة القاتلة.

يقول أبو حامد الغزالي عن مقصود الرياضة أنه تفريغ القلب، "وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال حضرة الربوبية"[(١)].

وعلق العلامة ابن الجوزي على كلام الغزالي هذا قائلاً:

انظر إلى هذه الترتيبات، والعجب كيف تصدر من فقيه عالم، ومن أين له أن الذي يسمعه نداء الحق، وأن الذي يشاهده جلال الربوبية، وما يؤمنه أن يكون ما يجده من الوسواس والخيالات الفاسدة؟ وهذا الظاهر ممن يستعمل التقلل في المطعم فإنه يغلب عليه الماليخوليا"[(٢)].

---

(١) "الإحياء" (٣/٨٢).

(٢) "تلبيس إبليس" (ص ٢٨٠)، الماليخوليا: من الأمراض العقلية الخطيرة. ففي "المعجم الوسيط": "امتلخ عقل فلان: ذهب واستلب.

وفيما يلي أنقل جملة من أقوال الصوفية في ادعاء مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

يحكي الشعراني في ترجمة الشيخ عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي(١) أنه ابتلي بالإنكار عليه حين قال: إنه يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقظة ويشافهه، وقام عليه بعض الناس فانقطع في بيته إلى أن مات"(٢).

نلاحظ أنه - بالرغم من الضعف الذي اعترى المسلمين في ذلك الوقت - كانت القوة والغلبة لأهل الحق، والانقماع والخمول لأهل الباطل، خلافاً لما آل إليه أمرهم فيما بعد حيث ارتفعت راية الباطل وتفرغت مشايخ الطرق لتربية أتباعهم على هذه العقيدة علانية.

وفي ترجمة الشيخ إبراهيم المتبولي يقول الشعراني: وكان يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً في المنام فيخبر بذلك أمه فتقول: يا ولدي إنما الرجل من يجتمع به في اليقظة، فلما صار يجتمع به في اليقظة ويشاوره على أموره قالت له: الآن شرعت في مقام الرجولية"(٣).

وعنه يقول أيضاً: سمعت الشيخ عبد القادر الدشطوطي يقول: ليس أحد من الأولياء له سماط يمد كل سنة فوق سد الإسكندر ذي القرنين غير سيدي إبراهيم المتبولي ولا يتخلف أحد من الأنبياء والأولياء عن حضوره، فيجلس

(١) أبو محمد عبدالله بن أبي جمرة صوفي كبير جمعت كراماته في كراريس، تتلمذ عليه ابن الحاج صاحب "المدخل". مات سنة(٦٩٩هـ) انظر: "شجرة النور" (ص ١٩٩).

(٢) الطبقات الكبرى (١/ ١٧٢).

(٣) الطبقات الكبرى (٢/٧٥).

النبي صلى الله عليه وآله وسلم صدر السماط والأنبياء يميناً وشمالاً على تفاوت درجاتهم وكذلك الأولياء، ونقباء ذلك السماط المقداد بن الأسود رضي الله عنه وأبو هريرة رضي الله عنه وجماعة"[1].

**حيال هذا النص نلاحظ:**

١ - كيف أن عقيدة هؤلاء المتصوفة في الرجعة أوسع نطاقاً من عقيدة الشيعة كما أسلفت، فقد جعل هذا الصوفي جميع الأنبياء والأولياء لا يتخلفون عن حضور مائدة إبراهيم المتبولي السنوية!!

وهل من سخافة وجرأة على الله أكبر من اعتقاد أن يخرج الأنبياء والأولياء من حياتهم البرزخية المنعمة ويرجعون إلى الدنيا لا لشيء إلا لطعام أعده أحد أساطين التصوف؟

٢ - كيف أنه لم يستحِ حتى جعل من أجلة الصحابة خدماً لإبراهيم المتبولي على سماطه الخيالي.

وفي ترجمة الشيخ محمد الصوفي[2] - أحد مشايخه - قال الشعراني:

وكان يخبر أنه يجتمع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقظة أي وقت أراد"، ثم علق عليه الشعراني بقوله: وهو صادق؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم سائر في كل مكان وجدت فيه شريعته، وما منع الناس من رؤيته إلا غلظ حجابهم"[3].

---

(١) المصدر السابق (٢/٧٧).

(٢) هو الشيخ محمد الصوفي نزيل مدينة الفيوم، ذكر الشعراني أنه صحبه نحو خمس وثلاثين سنة، ولم يؤرخ لموته. انظر: الطبقات الكبرى (٢/١٦٠).

(٣) المصدر السابق.

أقول: على الذين يكرسون أنفسهم للدفاع عن الصوفية بعامة وعن عبدالوهاب الشعراني بخاصة أن ينظروا ما معنى هذه العقيدة في النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ إنها عقيدة زائدة على القول بالرجعة؛ لأن رجوع الشخص إلى الدنيا بعد موته شيء، وكونه في كل مكان شيء آخر، وهذا يؤكد قول من قال: إن الصوفية يعتقدون في الأشخاص المقدسين كل ما يعتقدونه في ربهم؛ لهذا لما كانت عقيدتهم أن الله تعالى في كل مكان بذاته لن يجدوا غضاضة في القول بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم "سائر في كل مكان"، ألا فليحمد الله المسلم الموحد على السلامة.

ويؤكد ابن المبارك أن شيخه الدباغ كان يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة فيقول: وكنت أنظر في "شمائل الإمام الترمذي" رحمه الله وفي شروحها فإذا اختلفوا في شيء من لونه صلى الله عليه وآله وسلم أو طول ذاته أو طول شعره أو مشيته أو غير ذلك من أحواله صلى الله عليه وآله وسلم ذهبت إلى شيخنا فأسأله عن الواقع من ذلك فيجيبني جواب المعاين المشاهد"[1].

وهو أمر أكده الدباغ نفسه فقال: لما أراد الله أن يفتح علي وأن يجمعني برحمته نظرت وأنا بفاس إلى القبر الشريف ثم نظرت النور الشريف فجعل يدنو مني وأنا أنظر إليه، فلما قرب مني خرج منه رجل وإذا هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم"[2].

وذهب الشعراني - كما ينقل عنه الفوتي - إلى أن الوسيلة إلى رؤيته هي كثرة الصلاة عليه، فقال: فلا يزال أحدهم يصلي على رسول الله صلى الله

---

(١) "الإبريز" (ص ٢٩٥).

(٢) "الإبريز" (ص٣٠٨).

عليه وآله وسلم ويكثر منها ويتطهر من كل الذنوب حتى يجتمع به يقظة في أي وقت شاء، ومن لم يحصل له هذا الاجتماع فهو إلى الآن لم يكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الإكثار المطلوب".

ويقول: "لا يكمل الرجل عندنا في مقام العرفان حتى يصير يجتمع برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقظة ومشافهة" ثم قال: وممن رآه يقظة من السلف الشيخ أبو مدين المغربي، والشيخ عبد الرحيم القناوي(١)، والشيخ موسى الزواوي(٢)، والشيخ أبو الحسن الشاذلي، والشيخ أبو العباس المرسي، والشيخ أبو السعود بن أبي العشائر(٣)، وسيدي إبراهيم المتبولي، والشيخ جلال الدين السيوطي، وكان يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم واجتمعت به يقظة نيفاً وسبعين مرة. وأما سيدي إبراهيم المتبولي فلا يحصى اجتماعه به..."(٤).

أقول: معنى هذا الكلام أخطر من مجرد اعتقاد رجعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والقول بوقوع مقابلته، بل فيه: أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكثر أحد منهم الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإكثار المطلوب، وأن أحداً منهم لم يبلغ مقام العرفان عند هؤلاء المتصوفة؛ ذلك لأن

---

(١) هو الشيخ عبدالرحيم بن أحمد القناوي، صوفي، مصري، مقدس عند الصوفية. كان يدعي مخاطبة جبريل عليه السلام، ويتواضع للكلاب. مات في قنا بصعيد مصر سنة (٥٦٢هـ). انظر: الطبقات الكبرى (١/١٥٦) ط. دار الفكر، و"جامع كرامات الأولياء" (٢/١٦٥-١٦٦).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) هو أبو السعود بن أبي العشائر الباذيني. صوفي من أهل العراق، ذكر الشعراني من خوارقه الصيام في المهد، مات سنة (٦٤٤هـ). انظر: "الطبقات الكبرى" (٢/١٤٥).

(٤) "الرماح" (١/١٩٩) عن "لواقح الأنوار القدسية".

أحداً منهم لم يقابل ولم يَّدعِ مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته، بل نلاحظ أن الأشخاص الذين عدهم الشعراني ليس منهم أحد من أهل القرون المفضلة.

ويقول الشعراني أيضاً: وكان ورد الشيخ أحمد الزواوي[(١)] أربعين ألف صلاة، وقال لي مرة: طريقنا أن نكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى يصير يجالسنا يقظة ونصحبه مثل الصحابة، ونسأله عن أمور ديننا وعن الأحاديث التي ضعفها الحفاظ عندنا ونعمل بقوله صلى الله عليه وآله وسلم"[(٢)].

وتحدث الفوتي عن شيخه التيجاني فقال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبره بقوله عليه الصلاة والسلام: بعزة ربي يوم الإثنين ويوم الجمعة لم أفارقك فيهما من الفجر إلى الغروب ومعي سبعة أملاك، وكل من رآك في اليومين تكتب الملائكة اسمه في ورقة من ذهب، ويكتبونه من أهل الجنة"[(٣)].

وينقل ابن ضيف الله أن: "الشيخ خوجلي يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم كل يوم أربعة[(٤)] وعشرين مرة يقظة"[(٥)].

---

(١) صوفي مصري من شيوخ الشعراني، مات سنة (٩٢٣هـ) انظر: "الطبقات الكبرى" (١٦٢/٢) ط. دار الفكر.

(٢) "الرماح" (١٩٩/١) عن "لواقح الأنوار القدسية".

(٣) "الرماح" (٢٩/٢).

(٤) هكذا.

(٥) "طبقات ابن ضيف الله" (ص١٩١).

ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينما يرافق الشيخ التيجاني - وهو بفاس - يوم الإثنين ويوم الجمعة ولا يفارقه فيهما، نجده يقابل الشيخ خوجلي بالسودان كل يوم أربعاً وعشرين مرة، أي في كل ساعة ليلاً ونهاراً!!

ويزعم الرفاعية أن الشيخ أحمد الرفاعي لما حج وقف تجاه الحجرة النبوية الشريفة وأنشد:

**في حالة البعد روحي كنت أرسلها**
**تقبل الأرض عني وهي نائبتي**
**وهذه نوبة الأشباح قد ظهرت**
**فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي**

فخرجت إليه اليد الشريفة من القبر حتى قبلها والناس ينظرون"[1].

وهذه القصة باطلة لأمور:

**الأول:** أنها لو صحت لتوافرت دواعي نقلها مستفيضة ولم يتفرد بها بعض متعصبة الصوفية؛ وذلك لغرابتها، ولأن الوقت وقت الحج والناس - من كل الطبقات والمستويات - يحضرونه، فلو وقع مثلها لسطره العلماء المعاصرون للرفاعي في مصنفاتهم، ولوجدنا ولو شخصاً واحداً يثبت ذلك، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فكان برهاناً ساطعاً على أنها من منسوجاتهم الخيالية.

يقول العلامة الآلوسي في تفنيد هذه القصة: "فالشيء الذي تتوفر الدواعي على نقله ولم يذكره أحد من الثقات، بل ذكره الدجالون الضالون المضلون فهو لا شك تزوير وبهتان وكذب من إفك شيطان"[2].

(١) "قلادة الجواهر" (ص٦٧-٦٨).
(٢) "غاية الأماني" (١/٢٢٤).

**الثاني**: أنه قد ترجم لأحمد الرفاعي جماعة من المؤرخين ولم يذكروا هذه القصة في ترجمته، ولو كانت ثابتة لعدوها من أعظم مفاخره، لا سيما التاج السبكي المشهور بتعصبه للمتصوفة، ومع ذلك لم يذكر هذه القصة في ترجمته في" الطبقات"، ومع ذلك تجد أنه جمع في ترجمته ما وقف عليه من المفاخر، فذكر قصة الهرة التي كانت نائمة على كمه فقطع الكم، وقصة البعوضة التي كانت تمتص دمه، فقال لمن صافحه: شوشت على هذه الضعيفة"[1].

**الثالث**: ذكر الآلوسي أن كثيراً من أهل العلم والأدب نسب البيتين إلى ابن الفارض، ومنهم الشيخ صلاح الصفدي في تذكرته حيث قال: " إن ابن الفارض لما اجتمع بالشهاب السهروردي قال: في حالة البعد... فذكر البيتين".

ثم قال الآلوسي: "وكفى بما ذكره الشيخ صلاح الدين هذا شاهداً على بطلان ما ادعاه غلاة الرفاعية ومبتدعتهم، فإن هذا الشيخ كان إماماً أديباً ناظماً ناثراً"[2].

ويؤيد ذلك أن السيوطي أورد القصة مصدراً إياها بقوله: "وفي بعض المجاميع"[3].

ومعلوم أن السيوطي من المنتصرين لعقيدة وقوع رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة، فلو علم مصدراً موثوقاً لهذه القصة لبادر إلى ذكره.

---

(١) "طبقات الشافعية" (٦/٢٤-٢٥).

(٢) "غاية الأماني" (١/٢٢٥).

(٣) "تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك" (٢/٢٦١).

**الرابع**: أن مثل هذه القصة لو وجدت في مصدر موثوق لعدت من الأوهام والوساوس، يقول الغزالي: "فإذا كان بعض الناس يحكي أموراً عن مجيئه للرسول في قبره وأنه سلم فسمع الرد ثم حظي بتقبيل اليد فهذا بين حالين: إما أن يكون كاذباً فلا قيمة لكلامه، وإما أن يكون مجذوباً تخيل فخال ولا قيمة لكلامه كذلك، ونحن لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لهذه الحكايات"[(١)]"[(٢)].

**المطلب الثاني**: اعتقاد أنه صلى الله عليه وآله وسلم يحضر بعض اجتماعات المتصوفة:

بعد بيان عقيدة أنصار الفكر الصوفي في إمكان مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووقوع مشافهته يقظة من حيث الجملة نتطرق في المطلبين الآتيين إلى ذكر بعض الأغراض التي يقابل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هؤلاء لأجلها.

وأول نص صوفي يلفت النظر في هذا الصعيد هو اعتقاد الصوفية أنه صلى الله عليه وآله وسلم يحضر بعض الموالد الصوفية، فينقل الشعراني عن الشيخ محمد الشناوي، أن شيخه محمد السروري تخلف سنة عن حضور مولد البدوي، فعاتبه الشيخ البدوي وقال: موضع يحضر فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه وأصحابهم والأولياء... وما يحضره؟ فخرج الشيخ محمد إلى المولد فوجد الناس راجعين وفاته الاجتماع فكان يلمس ثيابهم ويمر بها على وجهه"[(٣)].

---

(١) سقطت هذه العبارة من طبعة الريان، فلا أدري أهو من المؤلف أم من تصرف الطابعين؟.

(٢) "عقيدة المسلم" (ص٩٢).

(٣) الطبقات الكبرى (١/١٥٨).

قلت: إن مما لا شك فيه أن الجهل بالشريعة وقواعدها وحدودها هو الذي أدى بهؤلاء إلى مثل هذه الخزعبلات، فإن هذه الأعياد والمواليد والاجتماعات الصوفية لا تعدو كونها مبتدعة في الدين ما أنزل الله بها من سلطان، لا في كتابه العزيز ولا على لسان رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرهم أو أحد من خلفائه الراشدين لكان أول من يزجر هؤلاء عن إقامتها ويؤدب المصرين عليها، لكن بسبب الجهل الفاضح وخلو الديار من سلطان قائم بنصرة السنة وقمع البدعة بلغ من استهزاء هؤلاء بالسنة وأهلها أن جعلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإخوانه الأنبياء وأصحابه الكرام في مقدمة من يحضر تلك البدع والمنكرات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن ذلك اعتقاد التيجانية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الأربعة يحضرون بعض جلسات أذكارهم اليومية، ففي "جواهر المعاني": ولا تقرأ جوهرة الكمال إلا بالطهارة المائية لا بالترابية؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحضر عند قراءتها"[١].

وقال الشيخ الفوتي في الفضيلة الرابعة والثلاثين من فضائل الطائفة التيجانية: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الأربعة يحضرون مع أهل هذه الطريقة كل يوم، قال - يعني شيخه التيجاني - إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من قرأها سبعاً فأكثر يحضره النبي صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الأربعة ما دام يذكرها"[٢].

---

(١) (١/١٢٤).

(٢) "الرماح" (٢/٤٨).

وعقد أيضاً فصلاً في كتابه عنوانه: الفصل الحادي والثلاثون في إعلامهم أن الأولياء يرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقظة، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم يحضر كل مجلس أو مكان أراد بجسمه وروحه، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض في الملكوت وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء"[(١)].

قلت: لا ريب أنه لو كان صلى الله عليه وآله وسلم يحضر تلك المجالس بجسده وروحه وبهيئته لرآه الناس كذلك، وواقع حالهم ينفي ذلك بالكلية، حيث وجدناهم يؤولون كل شيء يقع على ثوبهم المفترش ولو ذبابة على أنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأين الجسد والهيئة؟

يقول صاحب كتاب "الختمية" السوداني - عندما علل لقيامهم جماعة عند ذكر الولادة في أثناء احتفالهم بترديد الأناشيد المولدية - : أما القيام في حالة ذكر الولادة فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشر الختم في منامه بأنه يحضر حين ذكر الولادة، وبما أن الشيطان لا يتمثل بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد وجب التصديق بحضوره صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك وجب القيام لحضوره إكراماً له صلى الله عليه وآله وسلم"[(٢)]. مع أن هذا الرجل لم يقر صراحة بأنهم يرون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أثناء هذه المواليد إلا أنه اعترف بعقيدتهم في أنه يحضرها.

(١) "الرماح" (١/١٩٨-١٩٩). ويبدو أنه أخذ هذا السياق من "تنوير الحلك" للسيوطي (٢/٢٦٥) ضمن "الحاوي".
(٢) (ص ١٣٥).

والقول برؤيته لازم لهم إذا كانوا يعتقدون أن حضوره يكون بالجسد والروح.

المطلب الثالث: اعتقاد أنه عليه الصلاة والسلام ما زال يعطي بعض المعارف والتشريعات لمن يشاء من العباد:

يرى الصوفية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كان في حياته الدنيا كان أمره ونهيه عاماً لجميع الأمة، وبعدما توفي إلى الدار الآخرة صار أمره ونهيه خاصين بالخواص من أمته.

يقول صاحب "جواهر المعاني": "فلما انتقل إلى الدار الآخرة - وهو كحياته صلى الله عليه وسلم في الدنيا سواء - صار إلى أمته الأمر الخاص للخاص"[1].

يقول ابن المبارك عن مسألة الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، والتي يصفها بأنها أتعبت العلماء وأفردوها بالتأليف وبحثوها من خلال مصنفاتهم، أمثال ابن الجوزي، والباقلاني، وابن حجر، والسيوطي، يقول: "ومع وقوفي على كلام هؤلاء الأربعة الفحول ومعرفتي بظاهره وباطنه وبأوله وآخره لم يحصل عندي ظن بمراده صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت للشيخ - يعني الدباغ -: لا أسألك إلا عن مراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال....: إذاً نجيبك إن شاء الله، فلما كان من الغد قال لي - وقد صدق فيما قال -: "سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن مراده بهذا الحديث فأجابني عن مراده صلى الله عليه وآله وسلم، فتكلمت مع الشيخ في ذلك ثلاثة أيام وهو يبين لي معنى

(١) (١/١٤١).

المراد... سمعت فيه من الأسرار ما لا يكتب ولا يطاق"[١]، ثم لخص ما يرى من ذلك أنه يمكن أن يكتب، فذكر كلاماً كثيراً كله غوامض وطلاسم غير قابلة للعرض على بساط البحث العلمي الرزين.

وكلامه مع ما فيه من دعوى مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه أيضاً:

١ - دعوى استمرار التشريع بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى ذلك أنه عليه الصلاة والسلام مات قبل كمال الدين، وهو باطل كما سنرى في المطلب الخامس إن شاء الله.

٢ - اتهام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، وهو غير جائز في حقه؛ إذ كيف يؤخر بيان المراد بهذا الحديث مع مساس حاجة المسلمين إلى ذلك حتى يأتي القرن الثاني عشر فيبينه لرجل أمي لا علم له بالكتاب والسنة اسمه عبد العزيز الدباغ؟

يقول الشيخ التيجاني: "سألت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل أذكر الاسم الأعظم بالتيمم للمرض إذا أصابني ولم أقدر على الوضوء؟ فقال لي: لا. إلا أن تذكره بالقلب دون اللسان"[٢].

هذه الدعوى - أيضاً - مماثلة للتي قبلها؛ لأن النهي عن ذكر اسم الله الأعظم باللسان إلا بالطهارة المائية لم يرد في الشريعة الإسلامية المنزلة، فلم يبق إلا أن يكون تشريعاً جديداً أخفاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم - كما يزعمون - عن جميع الأمة منذ عهد الصحابة، حتى جاء الشيخ التيجاني فعلمه إياه. وحاشاه عليه الصلاة والسلام أن يخفي شيئاً من أمور الدين.

(١) "الإبريز" (ص ٣٥-٤٠) وما بعدها.
(٢) "جواهر المعاني" (٢/ ١٣٢- ١٣٣).

وكان أبو المواهب الشاذلي - كما يقول الشعراني - كثير الرؤية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فلنستمع إلى بعض التعاليم التي يزعم أنه تلقاها منه صلى الله عليه وآله وسلم:

أ - قال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على سطح الجامع الأزهر عام خمسة وعشرين وثمانمائة؛ فوضع يده على قلبي وقال: يا ولدي الغيبة حرام، ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] وكان قد جلس عندي جماعة فاغتابوا بعض الناس"(١).

ب - وقال: "جاءني جماعة يأخذون عني الطريق، فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: الجماعة غير مؤمنين بك إلا واحداً بعض الإيمان، فهو يراك بالعين العوراء وسيختم الله له بخاتمة الخير والموت على الإسلام"(٢).

جـ - وقال: "استعجلت مرة في صلاتي عليه صلى الله عليه وآله وسلم لأكمل وردي وكان ألفاً، فقال لي صلى الله عليه وآله وسلم: أما علمت أن العجلة من الشيطان، ثم قال: قل اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد بتمهل وترتيل إلا إذا ضاق الوقت فما عليك إن عجلت"(٣).

---

(١) الطبقات الكبرى (٢/٦٥).

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر (٢/٦٦).

د - وقال أيضاً: "رأيت امرأة بمصر تدور على الأبواب وهي تغني في مدح المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، فسألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنها. فقال: هي ولية كبيرة"[١].

وقال: "وقع بيني وبين شخص من الجامع الأزهر مجاملة في قول صاحب البردة:

**فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم**

وقال لي: ليس له دليل على ذلك، فقلت له: قد انعقد الإجماع على ذلك.

فلم يرجع، فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر وعمر جالسان عند منبر الجامع الأزهر وقال لي: مرحباً بحبيبنا. ثم قال لأصحابه: أتدرون ما حدث اليوم؟ قالوا: لا يا رسول الله، فقال: إن فلاناً التعيس يعتقد أن الملائكة أفضل مني. فقالوا بأجمعهم: لا يا رسول الله، ما على وجه الأرض أفضل منك. فقال لهم: فما بال فلان - التعيس الذي لا يعيش وإن عاش عاش ذليلاً خمولاً مضيقاً عليه خامل الذكر في الدنيا والآخرة - يعتقد أن الإجماع لم يقع على تفضيلي؟ أما علم أن مخالفة المعتزلة لأهل السنة لا تقدح في الإجماع"[٢].

وهكذا: مرة يظهر له النبي صلى الله عليه وآله وسلم - حسب ما يدعي - لا لشيء إلا ليقول له: الغيبة حرام، أو يقول له: إن هؤلاء الجماعة غير مؤمنين بك. ولقد أحسن هؤلاء إذ كيف يؤمنون ويتبعون شخصاً جاهلاً بأبسط الأحكام الشرعية - حتى حكم الغيبة - ولا يسأل عنها العلماء.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) الطبقات الكبرى (٦٦/٢).

ويظهر له؛ ليقول له: إن العجلة من الشيطان، ومرة يظهر له ليقول له: "إن فلانة المغنية ولية كبيرة".

ثم يقول له في آخر المطاف: إن خلاف المعتزلة غير قادح في إجماع أهل السنة.

لا شك أن هذا الذي يراه هذا الشيخ - إن كان رأى شيئاً - رئي من العفاريت المردة جاء ليضحك عليه ويزيده ضلالاً على ضلال.

وكذلك نجد في المصادر الصوفية: "عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه فروى ذلك الفقيه حديثاً، فقال له الولي: هذا باطل. فقال الفقيه: من أين لك هذا؟ فقال: هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم واقف على رأسك يقول: إني لم أقل هذا الحديث"[(١)].

أقول: لا ريب أن نشر مثل هذا الفكر قصد منه تنويم شباب الإسلام وصدهم عن طلب العلم من أبوابه المعروفة والزج بهم في متاهات الرياضة والخلوة.

ومن البدهيات أن أقول إن مثل هذه القصص غير صالح للاعتماد عليها في مجال البحث العلمي، فإن كل أحد يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام إذا توفر لديه ما يلزم من الجرأة والوقاحة، وإلا فماذا يقول لو قام رجل آخر من المجلس تزيا بزي أولياء الصوفية وقال: هذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم واقف يقول: أنا قلت هذا الحديث؟.

ألا فليعلم الجاهلون أن مسائل الشريعة ليست بهذه المهانة.

وذكر علي حرازم برادة أن شيخاً اسمه محمد بن العربي التازي (ت ١٢١٤هـ) حفظ أبياتاً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام ثم لقيه في اليقظة

(١) ذكره السيوطي في (تنوير الحلك) (٢/ ٢٦٠) ونقله عنه الفوتي في (الرماح) (١/ ٢٠٨).

فطلب منه شرح الأبيات فشرحها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال له: "لولا محبتك في التيجاني ما رأيتني قط"[1].

ويخبر صاحب" جواهر المعاني" أيضاً:

أ - "أن الورد المعروف بحزب البحر أملاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الشيخ أبي الحسن الشاذلي"[2].

ب - كما يخبر "أن الشيخ التيجاني لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة فسأله عن نسبه وهل هو من أبنائه وآله؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنت ولدي حقّا ثلاث مرات، وقال له: ونسبك إلى الحسن بن علي صحيح"[3].

ت - "وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أذن للشيخ التيجاني يقظة لا مناماً بتربية الخلق على العموم والإطلاق، وعين له الورد الذي يلقنه في سنة (١١٩٦هـ)[4].

ث - "وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي أمر بتأليف كتاب جواهر المعاني"[5].

وقال الشيخ صفي الدين: "رأيت الشيخ الجليل الكبير أبا عبد الله القرطبي أجل أصحاب الشيخ القرشي، وكان أكثر إقامته بالمدينة النبوية، وكان

(١) "جواهر المعاني" (٢/١٥٣-١٥٤). وانظر الأبيات وشرحها (من ١٥٤ إلى ١٥٨)

(٢) (١/١٤٩).

(٣) (١/٣١).

(٤) (١/٥١ و١/١٢٢).

(٥) (١/٥٣).

له بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم صلة وأجوبة ورد للسلام، حمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسالة للملك الكامل وتوجه بها إلى مصر وأداها وعاد إلى المدينة"[1].

أقول: هذا الكلام بعيد عن الواقع حتى لو تغاضينا عن مسألة إمكان رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته وعدم إمكانها فضلاً عن وقوعها.

أما **أولاً**: فلأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكتب، بل هو النبي الأمي كما في نص القرآن والسنة[2].

وأما **ثانياً**: فإن قيل: إن الكتابة نشأت له بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، أو قيل: إنه استكتب الرسالة كما كان يفعل في حياته، رد بأنه لو أرسل خطاباً إلى الملك الكامل لاحتفل بذلك، وأولى المسألة اهتماماً عظيماً يؤدي إلى شيوعه واستفاضته، ولم يبقه قيد الكتمان حتى يأتي السيوطي والفوتي لينشرا ذلك النبأ العظيم.

بل لو كان هذا صحيحاً لكان هذا الخطاب محفوظاً في جملة آثاره المحفوظة كرسائله إلى الملوك ونحوها؛ لأن تلك الرسائل أقدم زمناً، وقد كانت موجهة إلى ملوك كافرين ومع ذلك فقد حفظ بعضها إلى اليوم، فما بال رسالة متأخرة أرسلها صلى الله عليه وآله وسلم بعد قرون عديدة من وفاته إلى ملك مسلم لا يرى لها أثر ولا يسمع لها خبر إلا في كتاب" تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك؟".

---

(١) "تنوير الحلك" (٢/٢٦٠) ضمن "الحاوي" ونقله الفوتي في "الرماح" (١/٢٠٧).

(٢) انظر: سورة الأعراف الآية (١٥٧)، وصحيح مسلم (١/٨٦).

أما الشيخ الفوتي نفسه فقد ذكر: "أن رجلاً من الأولياء بالمدينة المنورة... كان يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويسأله عن جميع ما يريد فيخبره النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما سأل، فطلبت منه أن يسأل لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن حالي وعما يؤول إليه أمري، وأخبرني بعد مدة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبره: أن لي خصماً شديد العداوة لي في بلدنا قد مات بعدي ينبغي لي أن أعفو عنه لاشتداد العذاب عليه، فعفوت عن الخصم..."[1].

يبدو أن القصة نسجت على منوال ما قبلها من القصص، وإلا فلماذا لم يسق لقراء "رماحه" ما أخبره به النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما سيؤول إليه حاله فيما بعد؟ واكتفى بذكر ما آل إليه أمر خصمه، وهو إنما سأل عن مآل أمره ولم يسأل عما خبأه القدر لخصومه..

والسبب في عزوفه عن سرد ما سيؤول إليه أمره واضح جداً، لأنه لو أقدم على شيء من هذا القبيل لصار مادة خصبة ومعياراً جيداً لتقويم مصداقية هذا الرجل في قصته؛ ذلك لأن مصير الشيخ الفوتي معروف لدى الباحثين والمؤرخين[2].

**المطلب الرابع: اعتقاد إمكان مقابلة الموتى غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:**

كما سبق أن أشرت، أن الصوفية لم يجعلوا عقيدتهم في الرجعة خاصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وإخوانه الأنبياء، بل جعلوها تتناول كل شخص

(١) "الرماح" (١/١٨٦).

(٢) انظر ترجمته في "تقديس الأشخاص" (١/٨٥).

مقدس عندهم، والأشخاص المقدسون في الفكر الصوفي لا يكاد يحويهم الحصر أو يضبطهم العد: فمنهم البررة والفجرة والسحرة والمجانين والمهوسون وغيرهم.

وقد ذكرنا فيما مضى عندما تحدثنا عن الديوان القطبي أن الصوفية يعتقدون أن بعض الناس لا زال عضوا في ذلك الديوان الذي يعقد في غار حراء أو في السودان، وأن الدباغ ذكر ثلاث علامات تميز العضو الميت من العضو الذي لا يزال على قيد الحياة من أعضاء ذلك الديوان، فقال:

١ - "أن زيهم لا يتبدل بخلاف الحي... فإذا رأيت في الديوان رجلاً على زي لا يتبدل فاعلم أنه من الموتى، كأن تراه محلوق الشعر ولا ينبت له شعر، واعلم أنه على تلك الحالة مات.

٢ - أنه لا يقع معهم مشاورة في أمور الأحياء؛ لأنهم لا تصرف لهم فيها....

٣ - أن ذات الميت لا ظل لها فإذا وقف الميت بينك وبين الشمس فإنك لا ترى له ظلاً..."[١].

وهذا الزعم يوضح في الحقيقة بعض مظاهر عقيدة هؤلاء في رجعة الأموات إلى الدنيا، ولكننا نسوق فيما يأتي عدداً قليلاً من النصوص المعبرة عن عقيدة رجعة غير الأنبياء.

في ترجمة الشيخ علي العياشي[٢] قال الشعراني: "وكانت الأولياء الأموات يزورونه كثيراً لا سيما الإمام الشافعي رضي الله عنه، فكان يخبره أنه كان عنده يقظة لا نوماً، وكان من لا يعرف حاله يقول: هذا خراف"[٣].

(١) "الإبريز" (ص ١٩٠).

(٢) صوفي كبير من أصحاب أبي العباس الغمري. مات بعد سنة (٩٠٠هـ) انظر: الطبقات الكبرى (١٦٢/٢).

(٣) المصدر السابق (١٦٢/٢) وهي آخر ترجمة في الطبقات.

وعن تجربته الشخصية تحدث الشعراني نفسه فقال: "وسبب حضوري مولد البدوي كل سنة أن شيخي العارف بالله تعالى محمد الشناوي... أحد أعيان بيته قد كان أخذ علي العهد في قبة تجاه وجه سيدي أحمد... وسلمني إليه بيده فخرجت اليد الشريفة من الضريح وقبضت على يدي وقال - يعني الشناوي للبدوي -: يا سيدي يكون خاطرك عليه واجعله تحت نظرك. فسمعت سيدي أحمد من القبر يقول: نعم"(١).

وذكر أيضاً أنه رأى البدوي بعد ذلك مرات عديدة، ومن أعجبها ما حكاه فقال: "ولما دخلت بزوجتي فاطمة أم عبد الرحمن وهي بكر مكثت خمسة شهور لم أقرب منها. فجاءني (البدوي) وأخذني وهي معي وفرش لي فرشاً فوق ركن القبة التي على يسار الداخل وطبخ لي حلوى ودعا الأحياء والأموات إليه، وقال: أزل بكارتها هنا فكان الأمر تلك الليلة".

ويقول أيضاً: "تخلفت عن ميعاد حضوري للمولد سنة ثمان وأربعين وتسعمائة، وكان هناك بعض الأولياء، فأخبرني أن سيدي أحمد... كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح ويقول: أبطأ عبد الوهاب ما جاء؟"(٢).

قلت: إن قصة خروج اليد الشريفة وكشف الستار ثم السؤال عن عبدالوهاب إن كان لها نصيب من الوقوع فلا تخرج عن كونها عملاً من قبل دجال من دجاجلة الإنس أو الجن. وهي تذكرني بالباب الشيعي الذي كان معتكفاً داخل السرداب الذي زعم الروافض أن إمامهم مختبئ فيه، وكان

---

(١) المصدر السابق (١/١٥٧).

(٢) الطبقات الكبرى (١/١٥٧).

المغفلون والمخدعون منهم يوجهون الخطابات التي تحمل الاستفسارات والاستفتاءات الدينية، فتأتيهم الأجوبة مكتوبة في رقاع من قبل الباب فيظنون أنها من الإمام، فعدوها لذلك من النصوص الشرعية المحتج بها!

ويبدو أن الشعراني - إن لم يكن ماكراً مخادعاً - لا بد أن يكون أحد أولئك الذين تعرضوا لمكر خبيث، ولا بد أن يكون الماكر به دجالاً وقحاً، وإلا كيف يجرؤ على اقتحام بيته وحرمته وهو مع زوجته ثم يأمره بفض بكارتها ومعاشرتها أمام أولئك الشياطين من الأحياء والأموات، والبدوي منزه عن اقتحام البيوت وكشف العورات إن صح ما نقله ابن العماد عن المناوي من أنه كان ممن "إذا قرب من مكان هرب منه الشيطان"[(١)]!

أما إن صح ما نقل عنه من أنه كان قد ترك الصلاة حتى قال ابن دقيق العيد: "إنك لا تصلي وما هذا سنن الصالحين" فقال له: اسكت وإلا غبرت دقيقك، ودفعه دفعة فإذا هو بجزيرة عظيمة جدًّا، فضاق خاطره حتى كاد أن يهلك، فرأى الخضر فقال له: لا بأس عليك إن مثل البدوي لا يُعترض عليه... إلخ"[(٢)].

أقول: إن صح هذا عنه فما هو ببعيد أن يقتحم البيوت وينتهك الحرمات.

يقول الشعراني أيضاً عن أبي العباس الحريثي[(٣)]: "ولقد قصدته في حاجة وأنا فوق سطح مدرسة أم خوند بمصر، فرأيته خرج من قبره يمشي من

(١) "شذرات الذهب" (٣٤٦/٥).

(٢) "شذرات الذهب" (٣٤٦/٥).

(٣) هو ابن العباس الحريثي زوج ابنة الشيخ محمد عنان، صوفي من شيوخ الشعراني. مات سنة (٩٤٥هـ). انظر: الطبقات الكبرى (١٤٧/٢).

دمياط وأنا أنظره إلى أن صار بيني وبينه خمسة أذرع، فقال: عليك بالصبر ثم اختفى رضي الله عنه"(١).

أما الشيخ الفوتي فقد تحدث هو الآخر عن تجربته الشخصية في وقوع الرجعة لأولياء التصوف، فقال: "ولما رجعنا من الحرمين حتى بلغنا أرض "برنو" وقع بيني وبين سلطانها اختلاف شديد، وسعى في قتلي غدراً، وأرسل بعض غلمانه ليلاً إلى بيتي ليفتكوا بي وساروا حتى وصلوا البيت الذي كنت فيه أنا وعيالي، وكان فيه سور، فلما وصلوا إليه أعمى الله تعالى أبصارهم: فإذا رفعوا أبصارهم نحو السماء رأوا السور وإذا نظروا إلى الأرض لم يروا شيئاً.... فلما كان هذا أتى واحد من أصهار السلطان فراشه ليلاً لينام فإذا بالشيخ - يعني التيجاني - قد ظهر له يقظة لا مناماً، وقال له: ما لكم وللشيخ عمر، لا تتركون عباد الله في أرض الله، وكرر هذه المقولة ثلاث مرات ثم غاب، وتكررت القصة ثلاث مرات كل ذلك يقظة لا مناماً"(٢).

وحكى ابن ضيف الله خلافاً وقع بين الشيخ عجيب والشيخ إدريس الأرباب حول حِلِّية شرب التنباك، فقال الشيخ إدريس: هو حرام. وفي المقابل أفتى الشريف عبدالوهاب بإباحته مثل الشيخ عجيب. استدل الشيخ إدريس على تحريمه بأن السلطان مصطفى سلطان إستنبول حرمه، ومذهب مالك إطاعة السلطان. ولما كان القاضي دشين مدمناً لشرب التنباك حتى وفاته انتهز الشيخ عجيب هذه الفرصة فأرسل دفع الله إلى قبر دشين ليسأله عن

(١) المصدر السابق.
(٢) "الرماح" (١/١٨٩-١٩٠).

حكم التنباك - لعله يجد منه فتوى بتحليله - لكن لسوء الحظ قال له: "التنباك حرام، كلم الشيخ إدريس يسأل لي المغفرة بسبب شربي له"[1].

وأخيراً نجد عند الشيخ طنطاوي جوهري[2] قصة غريبة زعم فيها رجعة هارون الرشيد ومقابلته إياه، فيقول تحت عنوان (هارون الرشيد يخاطبني): إن هارون الرشيد طلب منه طلباً ألح عليه فيه، فقال: "بحق الله، بحق النبي ﷺ، بحق القرآن إلا فعلته؟ فأكدته له أني أفعل ذلك. فقال: والله إن جعفراً ما زنى بأختي العباسة ولا زوّجته لها، ولكنه رجل خانني فقتلته. فهل تعاهدني أن تسهر الليل وتجد النهار وتقرأ في الكتب وتبحث فيها حتى تؤلف كتاباً به تطفئ النار المتأججة في الشرق والغرب وتدفع الأكاذيب التي نشرها جورجي زيدان؟ فعاهدته على ذلك"، ثم ذَكر أنه بعد هذه المقابلة قام يبحث فوجد في المكتبة كتاباً اسمه (العباسة أخت هارون الرشيد) فاشتراه ووقف على تفاصيل القصة، وبحث في كتب التاريخ فوجد أنها رواية خيالية يكذبها العلم، فألف كتاباً استجابة لطلب الرشيد اسمه (براءة العباسة أخت هارون الرشيد)[3].

هكذا ساق الرجل هذه القصة بكل بساطة - إن لم أقل وقاحة - تحت مبحث إمكان مقابلة الأحياء للأموات، وذكر قصصاً كثيرة مماثلة احتج بها على ذلك، وهو أمر غريب ما كان ليقع فيه رجل أزهري عاش في القرن الرابع

---

(١) "طبقات ابن ضيف الله" (ص ٥٢-٥٣).

(٢) هو طنطاوي بن جوهري، مصري تعلم في الأزهر، وتأثر بالصوفية تأثراً بالغاً فأغرق في مؤلفاته في سرد أقاصيص وأساطير التصوف. مات سنة (١٣٥٨هـ = ١٩٤٠م) انظر: "الأعلام" للزركلي (٣/٢٣٠).

(٣) انظر كتاب "الأرواح" لطنطاوي جوهري (ص ٣٢٣- ٣٢٥).

عشر الهجري لولا التضلع من الخرافات الصوفية. ولا بد من القول بأنها قصة بعيدة الوقوع، ومتنها منكر جدّا، إذ ما كان الرشيد رحمه الله ليحلف بحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وما كان ليختار طنطاوي بين علماء الأمة مع وجود علماء راسخين في علم الكتاب والسنة.

هذا، وأكتفي بهذا القدر من عرض هذه الأفكار والخيالات، وكان المقصود بيان وجود هذه العقيدة في الفكر الصوفي قديماً وحديثاً مثل ما هي موجودة في عقيدة الرافضة أو أشد، إلى جانب ما تخلل ذلك من تعليقات خفيفة وضعتها في المواضع التي رأيت أن الحاجة استدعتها، لأنتقل الآن إلى المطلب الأخير من هذا المبحث، وفيه أتصدى لتفنيد مزاعم وقوع مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو غيره بعد موته في اليقظة لا في المنام والله المستعان.

**المطلب الخامس:** بيان بطلان عقيدة الرجعة ومقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته يقظة:

**تتلخص دراسة هذا المطلب في مقامين:**

**المقام الأول:** تبيان بطلان عقيدة الرجعة.

**المقام الثاني:** بيان عدم وقوع مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته، وأن من ادعى ذلك إما كاذب وإما ملبس عليه ممكور به مضلل يجب عليه أن يبادر إلى ذكر الله والتمسك بهدي الكتاب والسنة.

أما بطلان عقيدة الرجعة فظاهرٌ بداهة لكل من تبصر في علوم الشريعة الإسلامية؛ لأن الأدلة القطعية دالة على ذلك كتاباً وسنة وإجماعاً ممن يعتد بإجماعه، ومخالفة المبتدعة وجودها كعدمها عند العارفين من أهل السنة والجماعة.

وبادئ ذي بدء نشير إلى أن أكبر ما يستدل به القائلون بالرجعة من الشيعة والصوفية إنما هي آيات القدرة، فيقول العاملي الشيعي مثلاً عن قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة:٤٠] "وهي دالة على إمكان الرجعة، فإنها من قسم إحياء الموتى لا تزيد على ذلك، ولا شك في تساوي نسبة قدرة الله إلى جميع الممكنات"(١).

ونقل السيوطي عن أبي محمد بن أبي جمرة أنه رد على من استبعد رجوع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الدنيا ورؤية بعض الناس إياه، وذكر وجهين من المحذور في عدم التصديق بوقوع رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته فقال في الوجه الثاني: "الجهل بقدرة القادر وتعجيزها كأنه لم يسمع في سورة البقرة قصة البقرة وكيف قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣] وقصة إبراهيم عليه السلام في الأربع من الطير وقصة عزير..."(٢).

وللرد على هذا نقول: ليس الخلاف حول شمولية القدرة الإلهية ولا حول إمكان الرجعة بالنسبة للقدرة الشاملة، بل النزاع حول وقوعها بحيث إن أشخاصاً معينين يموتون ثم يرجعون إلى الدنيا، وكذلك حول وجوب اعتقاده كما يقول منظرو الشيعة والصوفية، يقول ابن الخياط المعتزلي - في رده على ابن الراوندي الرافضي حين زعم أن العقل دال على إمكان وقوع الرجعة -: "وعلمنا أنه ليس بمستحيل أن يحوِّل الله أبا قبيس ذهباً، وأن ذلك لو حصل لم

(١) "الإيقاظ" (ص٧٧).

(٢) "تنوير الحلك" (٢/١٥٥-١٥٦) ضمن " الحاوي".

ينقص توحيداً ولم يبطل عدلاً وليس لنا - وإن كان كذلك - أن نصف الله بأنه يفعله... فكذلك القول بالرجعة ليس لنا أن نقول بها وإن كانت غير مستحيلة في القدرة، إذ كان لم يأت بها بل قد أتى بإبطالها ونفيها"(١).

وقال الآلوسي: "وكون الإحياء بعد الإماتة والإرجاع إلى الدنيا من الأمور المقدورة له عز وجل مما لا ينتطح فيه كبشان إلا أن الكلام في وقوعه، وأهل السنة ومن وافقهم لا يقولون به"(٢).

أما القرآن الكريم فقد وردت فيه آيات كثيرة تأبى القول بالرجعة ومنها:

١ - قوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠] قال ابن القيم: "وسبب سؤال الرجعة هو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته، فيقال له: كلا، لا سبيل لك إلى الرجعة وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر..."(٣).

ومن هذا يتبيّن أن هؤلاء القوم سألوا الرجعة لمهمة نبيلة وهي الانتهاء عن السيئات والإقبال على العمل الصالح. ومع هذا فقد رد طلبهم بما رأيت، فكيف يسمح للبدوي بالرجعة لكي يأمر الشعراني بوطء زوجته فوق القبة بحضوره؟

(١) "الانتصار والرد" (ص ٩٦).

(٢) "روح المعاني" (٢٠/٢٧).

(٣) "عدة الصابرين" (ص ١٨٤-١٨٥).

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

فكان الجواب قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة ١٦٥ - ١٦٧].

٤ - قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

ومن خلال هذه الآيات نجد أن هؤلاء سألوا الرجعة إلى الدنيا عند الموت وعند القيامة وعند رؤية العذاب، وعند دخولهم فيه، فلم يبق موطن من مواطن الآخرة إلا سألوا الله الرجعة فيها لفرط ندمهم على ضياع حياتهم في الكفر والمعاصي، ولكن الله تعالى يرد عليهم ردّاً عنيفاً في كل مرة: كلا لا رجعة، فقد تقدمت الأعمال وحان وقت الجزاء(١).

وفي السنة المطهرة ما يؤيد معنى هذه الآيات ويوضح صراحة أنه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت: فعن طلحة بن خراش قال: سمعت جابراً يقول: لقيني رسول الله

(١) انظر: "عقيدة الرجعة عند الشيعة" (ص ٢٥٤).

صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟ فقلت: يا رسول الله، استشهد أبي، قتل يوم أحد، وترك عيالاً وديناً. قال: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله. قال: ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك وكلمه كفاحاً[(١)]، فقال: يا عبدي، تمن علي أعطك. قال: يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب عز وجل: إنه سبق مني "إنهم إليها لا يرجعون". رواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن أبي عاصم، والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وحسنه أيضاً الألباني[(٢)].

وهو حديث صريح في منع القول بوقوع الرجعة فضلاً عن أن تكون عقيدة إسلامية يجب اعتقادها.

والحق واضح بيّن بهذه النصوص لمن كان الحق والهدى مبتغاه وضالته المنشودة.

**المقام الثاني:** بيان عدم وقوع مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته:

إن جماهير المشايخ من المتصوفة اكتفوا بسوق حكاياتهم في رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة، ولم يحاولوا الاستدلال على هذه المسألة بشيء غير الحكايات، لكن جماعة من منظريهم أجهدت أنفسها في البحث عن متمسك يتمسكون به في دعم هذا الزعم.

ومن أبرز هؤلاء جلال الدين السيوطي الذي ألف رسالته المسماة بـ (تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك) لأجل تأييد هذا القول، وحال السيوطي - كما

---

(١) أي مواجهة بغير حجاب. "جامع الأصول" (٨٧/٩) "والقاموس" مادة (ك ف ح).

(٢) "سنن الترمذي" في التفسير باب (٤، ٥/٢٣٠- ٢٣١ ح ٣٠١٠). و"سنن ابن ماجه": المقدمة باب (١٣ج١ / ٦٨ح ١٩٠). و"السنة" لابن أبي عاصم (ص٢٦٧)، و"المستدرك" (٢٠٤/٣)، و"ظلال الجنة": التعليق على الحديث رقم (٦٠٢) و"صحيح سنن ابن ماجه" (٣٨/١).

يقول الآلوسي - وتلونه معلوم، حتى جعله بعض أهل العلم حاطب ليل. وتمسك السيوطي بلفظ ورد في إحدى روايات حديث "من رآني في المنام..." إلخ، فقال: "وتمسكت بالحديث الصحيح الوارد في ذلك، أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي"[(١)].

أقول: هذا اللفظ هو عمدة السيوطي ومن دار على مداره في القول بإمكان رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة ومخاطبته وأخذ الأحكام وغيرها منه، وفي مستهل الجواب لا بد من إلقاء ضوء كاشف على الحديث رواية ودراية حتى نعرف قدر هذا اللفظ الذي اختاره السيوطي:

أما الحديث فقد رواه اثنا عشر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو يزيد، وهم: أبو هريرة، وأبو قتادة، وأنس، وجابر بن عبد الله، وعبد الله ابن مسعود، وأبو سعيد الخدري، وأبو جحيفة، وعبد الله بن عباس، وطارق بن أشيم، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكرة، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم.

١ - **أما حديث أبي هريرة** فقد رواه البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه[(٢)]، ورواه مسلم في صحيحه[(٣)]، ورواه أبو داود[(٤)]، والترمذي[(٥)]، وابن ماجه[(٦)]، ورواه أحمد في عشرة مواضع أو يزيد من مسنده[(٧)].

(١) "التنوير" (٢/٢٥٥) والحديث أخرجه: البخاري: التعبير (باب ١٠ جـ٤ ص٢٩٩ ح٦٩٩٢)، ومسلم: الرؤيا (باب١، ٤/ ١٧٧٥ح١٠).
(٢) (١/٥٥ح١١٠، ٤/١٢٧ح٦١٩٧، ٤/ ٢٩٩ ح ٦٩٩٣).
(٣) (٤/ ١٧٧٥).
(٤) (٥/ ٢٨٥ح ٥٠٢٣).
(٥) (٤/٥٣٧ح ٢٢٨٠).
(٦) (٢/١٢٨٤ ح٣٩٠١).
(٧) وهي: (١/٤٠٠، ٢/٢٣٢، ٢/٢٦١، ٢/٣٤٢، ٢/٤١١، ٢/٤٢٥، ٢/٤٦٣، ٢/٤٦٩، ٤٧٢، ٥/٣٠٦).

٢ - **وأما حديث أبي قتادة** فقد رواه البخاري[١]، ومسلم[٢]، وأحمد[٣].

٣ - **وأما حديث أنس** فقد رواه البخاري[٤].

٤ - **وأما حديث جابر** فقد رواه مسلم[٥].

٥ - **وأما حديث ابن مسعود** فقد رواه الترمذي[٦]، وابن ماجه[٧]، وأحمد في موضعين[٨].

٦ - **وأما حديث أبي سعيد** فقد رواه البخاري[٩]، وابن ماجه[١٠]، وابن عدي في الكامل[١١].

٧ - **وأما حديث أبي جحيفة** فقد رواه ابن ماجه[١٢].

٨ - **وأما حديث ابن عباس** فقد رواه ابن ماجه[١٣]، وأحمد في موضعين[١٤].

---

(١) (ح٦٩٩٦).
(٢) (١٧٧٦/٤).
(٣) (٣٠٦/٥).
(٤) (٢٩٩/٤ ح٦٩٩٤)
(٥) (١٧٧٦/٤).
(٦) (٥٣٥/٤ ح٢٢٧٦).
(٧) (١٢٨٤/٢ ح٣٩٠٠).
(٨) (٣٧٥/١، ٤٥٠/١).
(٩) (ح٦٩٩٧).
(١٠) (١٢٨٤/٢ ح٣٩٠٣).
(١١) (٣٣٩/٣).
(١٢) (١٢٨٥/٢ ح٣٩٠٤).
(١٣) (ح٣٩٠٥).
(١٤) (٢٧٩/١، ٣٦١/١).

٩ - **وحديث طارق بن أشيم** رواه أحمد في موضعين[١].

١٠ - ١١ - **وأما حديث علي بن أبي طالب وأبي بكرة** فقد رواهما ابن عدي[٢].

١٢ - **وأما حديث عبد الله بن عمرو** فقد رواه الطبراني في الكبير[٣].

بعد هذا العرض حول مخارج الحديث نلاحظ هنا ملاحظات مهمة ذات علاقة وثيقة بقيمة الحديث من حيث الاستدلال به على إقرار المسألة التي نحن بصدد دراستها:

**الأولى:** أن اثني عشر من الصحابة سمعوا هذا الحديث من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مما يدل على شيوعه واستفاضته.

**الثاني:** أن ثمانية من أئمة الحديث المصنفين اهتموا بهذا الحديث فأخرجوه في كتبهم؛ مما يؤكد اهتمامهم به وفهمهم لمدلوله، ومع ذلك لم يبوب له أحد منهم بقوله مثلاً: باب في إمكان رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة، ولو فهموا منه ذلك لبوبوا به أو بعضهم على الأقل؛ لأنه أعظم من كل ما ترجموا به تلك الأبواب.

**الثالث:** أن المواضع التي أخرجوا فيها هذا الحديث بلغ (٤٤) موضعاً[٤]، ومع كثرة هذه المواضع لم يرد في أي موضع لفظ (فسيراني في اليقظة)

---

(١) (٣/٤٧٢، ٦/٣٩٤).

(٢) (٧/٢٢١، ٢/٢٠٩).

(٣) "مجمع الزوائد" (٧/١٨١) ورجاله ثقات.

(٤) وتفصيلها حسب التخريج السابق كالآتي: (خ٦، م٥، د١، ت٢، ق٦، حم١٩، طب١، عد٤).

بالجزم إلا في إحدى روايات البخاري عن أبي هريرة، أما بقية الروايات فألفاظها: (فقد رآني) أو (فقد رأى الحق) أو (فكأنما رآني في اليقظة) أو (فسيراني في اليقظة، أو فكأنما رآني في اليقظة) بالشك. وبالنظر في ألفاظ الحديث وراياته نجد ملاحظات على لفظ (فسيراني في اليقظة) لا ريب أنها تقلل من قيمة الاستدلال بها وهذه الملاحظات هي:

١ - أن البخاري أخرج الحديث في ستة مواضع من صحيحه: ثلاثة منها من حديث أبي هريرة وليس فيها لفظ (فسيراني في اليقظة) إلا في موضع واحد.

٢ - أن كلاً من مسلم[(١)]، وأبي داود[(٢)]، وأحمد[(٣)]، أخرجوا الحديث بإسناد البخاري الذي فيه اللفظ المذكور بلفظ (فسيراني في اليقظة أو لكأنما رآني في اليقظة)، وهذا الشك من الراوي يدل على أن المحفوظ إنما هو لفظ (فكأنما رآني) أو (فقد رآني)؛ لأن كلاً منهما ورد في روايات كثيرة بالجزم وليس فيها شيء شك فيه الراوي.

وعند الترجيح ينبغي تقديم رواية الجزم على رواية الشك.

٣ - إذا علمنا أنه لم يرد عند مسلم ولا عند أبي داود غير رواية الشك أدركنا مدى تدليس السيوطي حين قال: "تمسكت بالحديث الصحيح الوارد في ذلك: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة قال:

---

(١) (ح٢٢٦٦).
(٢) (ح٥٠٢٣).
(٣) (٣٠٦/٥).

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي"[١]. فأوهم أن مسلماً وأبا داود أخرجا الحديث برواية الجزم، وأغفل جميع روايات البخاري الأخرى التي خلت من هذا اللفظ.

٤ - ذكر الحافظ ابن حجر أنه وقع عند الإسماعيلي في الطريق المذكورة (فقد رآني في اليقظة) بدل قوله: (فسيراني)[٢].

وهذه الأمور مجتمعة تفيد شذوذ هذا اللفظ، ولعل الحافظ ابن حجر أشار إلى ذلك ضمناً حين قال: "وشذ بعض الصالحين فزعم أنها تقع - يعني الرؤية - بعين الرأس حقيقة"[٣].

ونقل عن المازري قوله: "إن كان المحفوظ "فكأنما رآني في اليقظة" فمعناه ظاهر"[٤].

ولعل هذا الشذوذ هو ما قصده الشيخ محمد علي عبد الرحيم حين سئل: "إن بعض مشايخ الصوفية يدعون أنهم يرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة بالعين المجردة، ويستدون على حديث" من رآني في المنام فسيراني في اليقظة" فهل هذا صحيح؟ فأجاب الشيخ: أولاً: نص الحديث المذكور صحته ما يأتي: "من رآني في المنام فكأنما رآني..." هذا هو الصحيح؛ فادعاؤهم أنهم يرون النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة كذب وافتراء..."[٥].

---

(١) "التنوير" (٢/٢٥٥).

(٢) انظر:"الفتح" (١٢/٤٠٠).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق (١٢/٤٠١).

(٥) مجلة التوحيد المصرية: عدد شعبان (١٤١١هـ).

أقول: لعله أشار إلى الشذوذ المحقق، فتجوز في العبارة، فخص الصحة باللفظ الآخر، وهو تعبير غير دقيق؛ لأن الشاذ إسناده صحيح لكنه لا يحتج به في شيء، حيث إن المحفوظ صار بديلاً عنه.

هذا ما يتعلق بالحديث رواية، وإن تعجب فعجب استدلال هؤلاء بهذا اللفظ الشاذ على تقرير إمكان رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة ووقوعها مع اتفاقهم على: أن حديث الآحاد لا يحتج به في العقيدة.

أما ما يتعلق به دراية، فنقول: لو فرضنا أن هذا اللفظ (فسيراني) هو المحفوظ فإن العلماء المحققين لم يحملوه على المعنى الذي حمله عليه الصوفية. قال النووي في شرحه: "فيه أقوال:

**أحدها**: أن يراد به أهل عصره، ومعناه: أن من رآه في النوم ولم يكن هاجر يوفقه الله للهجرة ورؤيته صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة عياناً.

**ثانيها**: أنه يرى تصديق تلك الرؤيا في اليقظة في الدار الآخرة؛ لأنه يراه في الآخرة جميع أمته.

**ثالثها**: أنه يراه في الآخرة رؤية خاصة في القرب منه وحصول شفاعته ونحو ذلك"(١).

ونقل الحافظ ابن حجر هذه الأقوال بعد ما ذكر القول بحمله على الرؤية بالعين المجردة، وحكم على القائلين به بالشذوذ.

وجملة القول أن ادعاء إمكان رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة ووقوعها مذهب ضعيف مرجوح وذلك من وجوه:

---

(١) "شرح مسلم" (١٥/٢٦).

**الوجه الأول:** اختلاف القائلين به في المقصود بالرؤية، وهل هي رؤية لذاته صلى الله عليه وآله وسلم على الحقيقة، أم رؤية لمثال لها، نقله السيوطي ثم قال: "الذين رأيتهم من أرباب الأحوال يقولون بالثاني، وبه صرح الغزالي فقال: ليس المراد أنه يرى جسمه وبدنه بل يرى مثالاً له"[1]. ثم نقل عن ابن العربي واستحسن قوله: "رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصفته المعلومة إدراك على الحقيقة ورؤيته على غير صفته إدراك للمثال". ثم قال السيوطي: ولا يمتنع رؤية ذاته الشريفة بجسده وروحه؛ وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء أحياء ردت إليهم أرواحهم بعد ما قبضوا، وأذن لهم بالخروج من قبورهم والتصرف في الملكوت العلوي والسفلي"[2].

أقول: إذا كان أرباب الأحوال الذين رآهم السيوطي - على كثرتهم - يقولون: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يرى بروحه وجسمه بل يرى مثال له فقط، فكيف يدافع السيوطي عنهم ويخالفهم في الوقت نفسه؟

**الوجه الثاني:** أنهم اختلفوا أيضاً هل هذه الرؤية تكون بالقلب أو بالبصر؟ فيرى الشيخ محمد المغربي الشاذلي: "أن المراد برؤيته كذلك يقظة القلب لا يقظة الحواس الجسمانية؛ لأن من بالغ في كمال الاستعداد والتقرب صار محبوباً للحق، وإذا أحبه كان نومه من كثرة اليقظة القلبية كحال اليقظة التي لغيره، وحينئذ لا يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا بروحه المتشكلة بتشكل الأشباح"[3].

---

(١) "التنوير" (٢/٢٦٣).

(٢) نفس المصدر.

(٣) الطبقات الكبرى (٢/١٠٣).

أشار السيوطي إلى ذلك، ثم اضطرب اضطراباً شديداً حين قال: "أكثر ما تقع رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة بالقلب ثم يترقى إلى أن يرى بالبصر"، فإلى هنا يبدو أنه قصد الجمع بين القولين، ثم قال: "لكن ليست الرؤية البصرية كالرؤية المتعارفة عند الناس من رؤية بعضهم لبعض، وإنما هي جمعية حالية وحالة برزخية وأمر وجداني..."[1].

أقول: لعل هذا الاضطراب المتمثل في قولهم: يرى بحقيقته، ثم قولهم: لا بل يرى بمثاله، وقولهم: يرى بالقلب، ثم قولهم: بل بالبصر، ثم قولهم: نعم بالبصر لكن لا كالرؤية البصرية المعروفة، هو الذي حمل بعض كبار الصوفية على الإقلاع عن هذه العقيدة بالكلية، وهو ما يأتي في الوجه الثالث.

**الوجه الثالث:** أن بعض كبار الصوفية ينفي وقوع رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة.

فيقول أبو القاسم القشيري: "وقال بعضهم: في النوم معان ليست في اليقظة، منها: أنه يرى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والسلف الماضين في النوم ولا يراهم في اليقظة"[2].

وقد يقول قائل: "إن هذا نقله القشيري عن "بعضهم" ولا ندري هل هم من الصوفية أم من غيرهم؟

**والجواب:**

(١) "التنوير" (٢/٢٦٣).

(٢) "الرسالة القشيرية"- باب رؤيا القوم (ص٧١٨).

١ - أن القشيري نفسه من كبار الصوفية، وقد نقل العبارة وأقرها بل مجدها حيث علق عليها بقوله: "وهذه مزية عظيمة".

٢ - أنه لا ينقل في رسالته مثل هذا الكلام إلا عن الصوفية، حيث ذكر في مقدمة كتابه أنه إنما يذكر سير شيوخ التصوف وآدابهم... وما أشاروا إليه من مواجيدهم"[١]. وأكده في الخاتمة[٢].

**الوجه الرابع:** أن هذه العقيدة مخالفة لإجماع أهل السنة والجماعة، وهي خاصة بأهل البدعة، قال ابن حزم:

"واتفقوا أن محمداً عليه السلام وجميع أصحابه لا يرجعون إلى الدنيا إلا حين يبعثون مع جميع الناس"[٣].

**الوجه الخامس:** أنه يلزم من القول بإمكان رؤيته في اليقظة ووقوعها لوازم باطلة، قال القرطبي: "اختلف في معنى الحديث، فقال قوم: هو على ظاهره، فمن رآه في النوم رأى حقيقته، وهذا قول يدرك فساده بأوائل العقول، ويلزم عليه:

١ - أن لا يراه أحد إلا على صورته التي مات عليها.

٢ - وأن يراه رائيان في آن واحد في مكانين.

٣ - وأن يحيا الآن ويخرج من قبره ويمشي في الأسواق ويخاطب الناس ويخاطبوه، ويلزم من ذلك أن يخلو قبره من جسده فلا يبقى فيه

(١) "الرسالة" (٢٤/١).

(٢) المصدر السابق (٧٣١/٢).

(٣) "مراتب الإجماع" (ص ١٧٦).

شيء فيزار مجرد القبر ويسلم على غائب؛ لأنه جائز أن يرى في الليل والنهار... وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من العقل"(١).

وقال شيخ الإسلام: "وبعض من رأى هذا - أو صدق من قال إنه رآه - اعتقد أن الشخص الواحد يكون بمكانين في حالة واحدة فخالف صريح المعقول"(٢).

٤ - ويلزم منه أيضاً القول باستمرار التشريع؛ لأن الذين يدعون مقابلته يدعون أنهم يأخذون عنه بعض الأحكام الزائدة على ما هو موجود في الشريعة الإسلامية، وقد سبق ضرب أمثلة لذلك(٣).

يقول الشيخ محمد طاهر ميغري: "فلو ثبت أن هؤلاء الذين يدعون رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقظة أنهم يرونه حقّاً ويعطيهم ديانات جديدة إلى الناس لكان كل ما جاؤوا به من عنده صلى الله عليه وسلم من جملة شريعته، ولو كان كذلك لبطل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة:٣] ولبطلت أيضاً أحاديث كثيرة يتمسك بها علماء السنة في محاربتهم للبدع وأنواع الضلالات"(٤).

٥ - يلزم منه أيضاً أن يكون من رآه في اليقظة صحابياً، يقول ابن حجر:

---

(١) التفسير (١٢/٤٠١).

(٢) "قاعدة جليلة" (ص٤٤).

(٣) انظر: (٢/٢٥) من هذه الرسالة.

(٤) "التحفة السنية" (ص٤١).

"ونقل عن جماعة من الصالحين أنهم رأوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء... وهذا مشكل جدّا، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة، ولأمكن بقاء الصحابة إلى يوم القيامة"(١).

أقول: لا إشكال في الأمر؛ لأن ذلك غير صحيح، ومدعيه إما كاذب أو ملبس عليه. وما دامت الرؤية في اليقظة فلا شك أن الذي ظهر له مارد من مردة الجن أو الشياطين، والممنوع أن يتمثل الشيطان بصورته في المنام، قال شيخ الإسلام تعليقاً على الحديث: "فهذا في رؤية المنام؛ لأن الرؤية في المنام تكون حقّا وتكون من الشيطان فمنعه الله أن يتمثل به في المنام، وأما في اليقظة فلا يراه أحد بعينه في الدنيا، فمن ظن أن المرئي هو الميت فإنما أُتي من جهله، ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان"(٢).

ويقول الشيخ عبد العزيز بن باز: "ومن زعم من جهلة الصوفية أنه يرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة أو أنه يحضر المولد أو ما شابه ذلك فقد غلط أقبح الغلط، ولبس عليه غاية التلبيس ووقع في خطأ عظيم وخالف الكتاب والسنة وإجماع أهل العلم؛ لأن الموتى إنما يخرجون من قبورهم يوم القيامة لا في الدنيا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥، ١٦] فأخبر سبحانه أن بعث الأموات يكون يوم القيامة لا في الدنيا، ومن قال خلاف ذلك فهو كاذب كذباً بيّناً أو غالط ملبس عليه لم يعرف الحق الذي عرفه السلف الصالح(٣).

(١) "الفتح" (١٢/٤٠٢).
(٢) "قاعدة جليلة" (ص ٤٤).
(٣) "التحذير من البدع" (ص ١٨).

٦ - يلزم من هذا القول حسب ما يدعي الصوفية رمي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالافتقار إلى الحكمة في تصرفاته، حيث يخرج من قبره لتوافه الأمور، ويغيب عن حضور مهمات الأمور، وبيان ذلك: أن أموراً عظيمة وقعت لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم أفضل الأمة بعد نبيها كانوا في حاجة ماسة إلى وجوده بين أظهرهم ولم يظهر لهم، نذكر منها:

١ - وقع خلاف بين الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبب الخلافة، فقالت الأنصار للمهاجرين: منا أمير ومنكم أمير! فقال المهاجرون: إن العرب لا تذعن إلا لهذا الحي من قريش. واشتد النزاع بين الفريقين حتى كاد يشغلهم عن دفن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكيف لم يظهر لأصحابه ويفصل النزاع بينهم ويقول: الخليفة فلان. فينتهي النزاع؟ فلو كان يكلم أحداً في اليقظة لكلم أصحابه وفض النزاع بينهم؛ وذلك أهم من حضوره سماط إبراهيم المتبولي.

٢ - اختلاف أبي بكر الصديق مع فاطمة رضي الله عنهما على ميراث أبيها، فاحتجت فاطمة عليه بأنه إذا مات هو إنما يرثه أبناؤه فلماذا يمنعها من ميراث أبيها؟ فأجابها أبو بكر بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركنا صدقة" رواه البخاري وغيره(١). فبقيت مغاضبة لأبي بكر حتى ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها.

(١) في الفرائض (باب٣ ح٦٧٢٦ - ٦٧٢٧).

فهذان حبيبان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ففاطمة بضعة منه يسوؤه ما يسوؤها، وأبو بكر أحب الناس إليه، فلا ريب أن هذه المغاضبة مما يسوء النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ فلو كان يظهر لأحد بعد وفاته لغرض من الأغراض لظهر لأبي بكر الصديق، وقال له: إني رجعت عما قلته في حياتي فأعطها حقها من الميراث، أو لظهر لفاطمة وقال لها: يا ابنتي لا تغضبي على أبي بكر فإنه لم يفعل إلا ما أمرته به، فكيف يترك هذا الأمر الجليل ثم يظهر لأجل إحياء مولد البدوي؟

٣ - الخلاف الشديد الذي وقع بين طلحة والزبير وعائشة من جهة وعلي بن أبي طالب وأصحابه من جهة أخرى، الأمر الذي أدى إلى وقوع معركة الجمل، فقتل فيها خلق كثير من الصحابة والتابعين، وعقر جمل عائشة، فكيف يهون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم سفك هذه الدماء ووقوع هذا الشر بين المسلمين؟ وهو يستطيع أن يحقن هذه الدماء بكلمة واحدة، وهو الموصوف في التنزيل العزيز بأنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فكيف يدبر عن هذا ثم يواظب على حضور "جوهرة الكمال" في جميع الحلقات التيجانية في العالم؟.

٤ - الخلاف الذي وقع بين علي مع الخوارج، وقد سفكت فيه دماء كثيرة، ولو ظهر لرئيس الخوارج وأمره بطاعة إمامه لحقن تلك الدماء. فلا يعقل أن يترك ذلك ثم يظهر لأبي المواهب الشاذلي ليعلمه أن الغيبة حرام.

٥ - النزاع الذي وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما الذي أدى إلى وقوع حرب صفين، حيث قتل خلق كثير جدّا منهم عمار بن ياسر، فكيف يترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظهور لأفضل الناس بعده ويترك أعظم المصالح وأهمها وهي: جمع كلمة المسلمين وإصلاح ذات بينهم، ثم يظهر في آخر الزمان لمحمد بن العربي التازي ليشرح له أبياتاً غامضة لشاعر مجهول؟

٦ - أن عمر بن الخطاب على جلالة قدره وعظمة شأنه كان يظهر الحزن على عدم معرفته ببعض المسائل الفقهية فيقول: "ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يفارقنا حتى يعهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا" متفق عليه[١].

فلو كان يظهر لأحد بعد موته لظهر لعمر الفاروق وقال له: لا تحزن حكمها كذا وكذا، وكيف يترك هذا ثم يظهر لأبي المواهب الشاذلي ويفتيه بأن فلانة المغنية ولية كبيرة؟

**وبعد:** فلعلي أكون قد أوردت في هذه الأوجه ما يبين الحق ويدحض الباطل، ولا بد من الإشارة إلى أن الوجه الأخير ذكره "الشيخ تقي الدين الهلالي"[٢]، حيث أفاد أن الشيخ محمد بن العربي ناظره به لما كان تيجانياً فاقتنع بسببه ببطلان جميع الطرق الصوفية، يقول الهلالي: "هذه المناظرة

(١) خ: في الأشربة (باب٥) (٤/١٣ح٥٥٨٨)، م: في التفسير (٤/٢٣٢٢).

(٢) انظر: "الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية" (ص١٧-٢٠).

كنت أظن أن أصلها من الشيخ المصلح شعيب الدكالي؛ لأنه ناظر بها شيخنا محمد بن العربي فأفحمه واضطره إلى الخروج من الطريقة، ففعل هو معي مثل ما فعله معه الشيخ شعيب الدكالي رحمهما الله تعالى، ولكنني بعد ذلك بزمن وجدت هذه المناظرة في كتاب (غاية الأماني في الرد على النبهاني) لمؤلفه العالم السلفي محمود شكري الآلوسي البغدادي رحمة الله عليه، وهذا الكتاب من أنفس الكتب السلفية، جادل المبتدعين من المتصوفة وشدد عليهم الخناق بعبارات بليغة كأنها عقود جمان في أجياد الحسان، فيه من المتعة والفوائد ما يقل نظيره في الكتب"[1].

قلت: بالرجوع إلى "غاية الأماني" وجدت أن العلامة المذكور نقل أصل هذه المناظرة من الآلوسي الآخر صاحب "روح المعاني"[2].

**وأخيراً**: نقل السيوطي عن بعض أهل العلم احتجاجه على حياة الأنبياء بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم اجتمع بهم ليلة الإسراء في بيت المقدس[3]، ومقصده أن حياتهم في قبورهم تدل على إمكان رؤيتهم، وما دام هذا ممكناً في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم فيمكن أن يكون جائزاً في حق أولياء أمته معه، فيرونه في اليقظة.

والجواب على هذه الشبهة أن يقال:

**أولاً**: ليس النزاع في حياة الأنبياء في قبورهم ولا في اجتماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء وصلاته بهم إماماً، فإن ذلك كله ثابت رواية فيجب على جميع المؤمنين التصديق به.

---

(١) "الهدية" (ص٢٢).

(٢) "الغاية" (١/٢٢٥) وإلى الآن لم أقف على موضعه في "روح المعاني" فلعله في كتاب آخر.

(٣) "التنوير" (٢/٢٦٣).

**ثانياً:** أن مما يجب أن يعلم أن حياة الأنبياء في قبورهم حياة برزخية لا نعلم كيف هي، وحكمها كحكم غيرها من المغيبات، نؤمن بها ولا نشتغل بكيفيتها، ولكننا نجزم بأنها مخالفة لحياتنا الدنيا.

قال ابن القيم: "وأما إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن رؤية الأنبياء ليلة أسري به فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذي رآه أشباحهم وأرواحهم... وقد رأى إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، ورأى موسى قائماً في قبره يصلي، وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح... ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: هذه الرؤية إنما هي لأرواحهم دون أجسادهم، والأجساد في الأرض قطعاً إنما تبعث يوم بعث الأجساد، ولم تبعث قبل ذلك، إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة، وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور وهذه موتة ثالثة وهذا باطل قطعاً[(١)]، ولو كانت قد بعثت الأجساد من القبور لم يعدهم الله إليها بل كانت في الجنة. وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو، وهو أول من يستفتح باب الجنة وهو أول من تنشق عنه الأرض على الإطلاق"[(٢)].

وأكد رحمه الله اختلاف حياتهم عليهم السلام في قبورهم عن حياتهم الدنيا، فقال: "وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

---

(١) لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

(٢) "الروح" (ص ٦٣) والحديث أخرجه: خ: في الرقاق (باب ٤٣ ح٦٥١٧، ٦٥١٨). عن أبي هريرة وم: في الفضائل (ح١٦٠، ٤/١٨٤٤).

**أحدها:** تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

**الثاني:** تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

**الثالث:** تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

**الرابع:** تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه ألبتة. وقد ذكر في أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

**الخامس:** تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن"[1].

**قلت:** وعلى هذا فهمنا من التعلق الرابع أن حياة الأنبياء بعد الموت حياة خاصة تغاير الحياة الدنيا كل المغايرة، فأجسادهم موجودة في قبورهم وأرواحهم في السماء والاتصال بينهما حاصل بالكيفية التي يعلمها الله، قال ابن القيم أيضاً: "و قد صح عنه أنه رأى موسى قائماً يصلي في قبره ليلة الإسراء، ورآه في السماء السادسة أو السابعة، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر وإشراف عليه وتعلق به، بحيث يصلي في قبره ويرد سلام من سلم عليه وهو في الرفيق الأعلى"[2].

إذا تقرر هذا وفهم على وجهه، علمنا يقيناً أن قياس ما يدعيه الصوفية من مقابلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والجلوس معه ومخاطبته في

(١) "الروح" (ص٦٢).

(٢) المصدر السابق (ص٦٤).

اليقظة على حال الأنبياء ولقاء المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بهم ليلة الإسراء قياس فاسد الاعتبار؛ لأنه مع الفارق بل لا نسبة بين المقيس والمقيس عليه هنا.

**ثالثاً**: أن الذي أخبرنا بأنه اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء هو الصادق المصدوق الذي يجب على كل مؤمن أن يصدقه في كل ما أخبر به من المغيبات دقيقها وجليلها؛ ولذا آمنا بما أخبرنا به واعتقدناه عقيدة لا يتطرق إليها شك إن شاء الله تعالى.

أما من جاءنا يخبر وقوع رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة فمجموعة من الدراويش - أو الملبسين - خالفت الكتاب والسنة والإجماع والمعقول، فلم يجز - ولا أقول فلم يجب - أن نصدقهم في دعواهم تلك، بل وجب على كل موحد ذاب عن حمى العقيدة والشريعة أن يردها بما استطاع؛ لأنه باب يؤدي فتحه إلى ضلال عظيم وخراب جسيم للأديان والعقول، ويفتح باب التشريع من جديد، ولا حول ولا قوة إلا بالله. والله أعلم.

# الفصل الثالث

## التوسل والوسيلة في الفكر الصوفي وفيه مباحث:

- أنواع التوسل المشروع وأدلته.
- بعض شبهات المجيزين لما لا يجوز من التوسل.

# التوسل والوسيلة في الفكر الصوفي

## أنواع التوسل المشروع وأدلته وذكر التوسل غير المشروع:

إن معنى الوسيلة في لسان الشرع دائر حول العلم النافع والعمل الصالح، وفي هذه الدراسة سأتناول أنواع التوسل وأحكامه من حيث الجواز وعدمه، مذيلاً ببعض الشبهات التي يتمسك بها من أجاز الممنوع من التوسل، مع مناقشتها وبيان الحق في المسألة حسب الأدلة الشرعية.

**والتوسل** - من حيث حكمه - **ينقسم إلى نوعين:**

**الأول:** التوسل المشروع.

**والثاني:** التوسل غير المشروع. وإليك البيان:

**أولاً: التوسل المشروع:** بتتبع ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبين أن هناك ثلاثة أنواع للتوسل شرعها الله تعالى، أذكرها فيما يأتي مع أدلتها:

١ - التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، فيذكر الأسماء والصفات الملائمة لدعائه متوسلاً بها. وأدلة مشروعية هذا النوع من التوسل متوافرة في الكتاب والسنة، فإليك بعضاً منها:

أ - قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي: ادعوه متوسلين إليه بأسمائه الحسنى، حسب الرغبة اللائقة بكل اسم.

قال القرطبي - في تفسير قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ : "أي اطلبوا منه بأسمائه، فيطلب بكل اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رزاق ارزقني، يا هادي اهدني، يا فتاح افتح لي، يا تواب تب علي، هكذا"(١).

ب - من هذه الأدلة ما ذكره تعالى من دعاء سليمان عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[النمل: ١٩].

فتوسل برحمة الله التي هي صفة من صفاته تعالى.

جـ - ومن أدلة هذا النوع في السنة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من كثر همه فليقل: اللهم إني عبدك، وابن عبد وابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك..." الحديث، رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألباني(٢).

د - ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم في استعاذته: "اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني". متفق عليه(٣). واللفظ لمسلم.

(١) "تفسير القرطبي"(٣٢٧/٧).
٢) "المسند" (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، و"المستدرك" (٥٠٩/١)، و"الصحيحة" (رقم ١٩٩) و"التوسل" (ص٣١).
(٣) مسلم: في الذكر، باب (١٨) (٢٠٨٦/٤)، والبخاري: في التوحيد، باب(٥) (٣٨٠/٤ ح٧٣٨٣).

فقد توسل عليه الصلاة والسلام في ذلك الحديث بكل أسماء الله تعالى، واستعاذ بعزته التي هي صفته، من الضلال.

وتوسله صلى الله عليه وآله وسلم بأسماء الله وصفاته يعد امتثالاً وتطبيقاً عملياً لما أمر الله به عباده في قوله ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

قال شيخنا عبد الله الغنيمان تحت الحديث المذكور: "وعزة الله صفته - كما تقدم -؛ فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم - وهو أعلم الخلق بالله وأتقاهم له - يتعوذ بصفاته تعالى؛ لأن ذلك من عبادة الله، بل هو من أفضلها، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾"[1].

## ٢- التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح من أعمال الداعي:

يجوز للمسلم أن يتوسل إلى الله بكل عمل صالح قام به، سواء أكان ذلك العمل الصالح من أعمال القلب، أو كان من أعمال الجوارح، كتوسله بإخلاص التوحيد لله، ومحبته لله ولرسوله، واتباعه سنته، إلى نظائر ذلك كالتوسل بالخوف من الله، ورجاء رحمته، وإيثار رضاه سبحانه وتعالى على رضا غيره، وطاعته في كل ما أمر، والانتهاء عن كل ما نهى عنه.

وهذا النوع من التوسل يستند إلى أدلة من القرآن والسنة، أذكر منها ما يأتي:

أ - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]. وقوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ

(١) "شرح كتاب التوحيد" (١/ ١٥٢).

الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، فهؤلاء المؤمنون - وهم يتوجهون إلى ربهم طالبين المغفرة والوقاية من عذاب النار - لم يجدوا وسيلة إلى ذلك أقرب من إيمانهم واتباعهم الرسول فتوسلوا بهما.

ب - ومن أدلة هذا النوع مضمون قصة أصحاب الغار: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق[1] قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي في طلب شيء يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إليّ، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة[2] من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي

---

(١) الغبوق: شرب آخر النهار، والمراد: أنني ما كنت أقدم عليهما في شراب حظهما من اللبن أحداً.

(٢) السنة: الجدب والقحط.

بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم[1] إلا بحقه، فتحرجت[2] من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله، أد إليّ أجري. فقلت له: كل ما ترى من أجرك -من الإبل والبقر والغنم، والرقيق-. فقال: يا عبد الله، لا تستهزئ بي. فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً. اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون"[3]. وهذا لفظ البخاري.

اتضح من هذا الحديث أن هؤلاء الرجال الثلاثة حينما اشتد بهم الكرب، واستغلقت أمامهم المنافذ، وانسدت الأبواب، وانقطع رجاؤهم فيئسوا من أن يأتيهم الفرج من أي طريق إلا من طريق الله تبارك وتعالى وحده، لجؤوا إليه، ودعوه بإخلاص متوسلين بما عملوه من أعمال صالحات، فتوسل الأول ببره

(١) كناية عن الجماع والوطء.

(٢) التحرج: الهرب من الحرج وهو الإثم. انظر ذلك كله في "جامع الأصول" (١٠/٣١٧-٣١٨).

(٣) البخاري: في الإجارة، باب (١٢) (٢/١٣٤ ح٢٢٧٢). وانظر أيضاً: (ح٣٤٦٥) ومسلم في الذكر والدعاء، باب (٢٧) (٤/٢٠٩٩-٢١٠١).

والديه، وعطفه عليهما ورأفته الشديدة بهما، وتوسل الثاني بعفته من الزنا، وتوسل الثالث بحفاظه على حق أجيره[(١)].

وهذا دليل أكيد على مشروعية التوسل إلى الله بكل الأعمال الصالحة التي تصدر من العبد، سواء أكان بفعل المأمور أم بترك المحظور.

### ٣- التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح:

إذا وقع المسلم في ضيق شديد، أو حلت به مصيبة أو كرب، ويعلم من جيرانه المسلمين من يعتقد فيه الفضل والصلاح والتقوى، والعلم بالكتاب والسنة ومتابعة ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فطلب منه أن يدعو له ربه ليفرج عنه كربه ويزيل عنه همه، فذلك مشروع دلت عليه الشريعة المطهرة وأرشدت إليه.

ومن أدلة هذا النوع ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "أصابت الناس سنة على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فبينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه - وما نرى في السماء قزعة[(٢)] - فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلى الله عليه وآله وسلم...". الحديث/ متفق عليه. وهذا لفظ البخاري[(٣)].

---

(١) انظر: "التوسل" للألباني (ص٣٥-٣٦).

(٢) القزعة: قطعة من الغيم. "جامع الأصول" (٦/٢٠٢).

(٣) البخاري في الجمعة، باب (٣٥) (١/٢٩٥ ح٩٣٣)، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (١/٦١٢-٦١٤).

ومن أدلته أيضاً ما رواه أنس: "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون". رواه البخاري[1].

وهذا الذي عمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمثل إجماعاً من الصحابة؛ ولذلك جرى عملهم على هذا بعده من غير خلاف، فقد ذكر التابعي سليم بن عامر الخبائري: "أن السماء قحطت فخرج معاوية بن أبي سفيان وأهل دمشق يستقون؛ فلما قعد معاوية على المنبر قال: أين يزيد بن الأسود الجرشي؟ فناداه الناس، فأقبل يتخطى الناس فأمره معاوية فصعد المنبر فقعد عند رجليه، فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود الجرشي. يا يزيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يزيد يديه ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن فارت سحابة في الغرب كأنها ترس وهبت له ريح فسقينا حتى أو «كاد»؟! الناس لا يبلغون منازلهم" رواه ابن سعد، ويعقوب بن سفيان، وصحح إسناده الحافظ، والألباني[2].

**تنبيهات:** بعد عرض هذه الأنواع الثلاثة بأدلتها نشير هنا إلى تنبيهات غاية في الأهمية:

**التنبيه الأول:** أن التوسل بالإيمان والأعمال الصالحة هو أصل الدين وعليه بني أسه[3]، فيجب التوسل بالإيمان بالأنبياء وبمحبتهم، وموالاتهم،

(١) البخاري في الاستسقاء، باب (٣) (١/٩١٨ح١٠١٠).
(٢) "طبقات ابن سعد" (٧/ ٤٤٤)، و"المعرفة والتاريخ" (٢/٣٨٠- ٣٨١)، و"الإصابة" (٦/٣٥٧)، و"التوسل أنواعه وأحكامه" (ص ٤٢).
(٣) انظر:" قاعدة جليلة" (ص ١٧، ٨٢) تحقيق د. ربيع.

وتعزيرهم، وتوقيرهم، ومعاداة من عاداهم وموالاة من والاهم، وطاعتهم فيما أمروا وتصديقهم فيما أخبروا، وتحليل ما حللوا، وتحريم ما حرموا.

وهذا التوسل يتحقق على وجهين:

**أحدهما**: أن يتوسل بإيمانه إلى إجابة الدعاء، وإعطاء السؤال المتعلق بقضاء حاجة من حوائج الدنيا والآخرة، أو تفريج كربة من كربهما، ويمثله حديث أصحاب الغار.

**وثانيهما**: التوسل بذلك إلى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه، فإن الإيمان والأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة، فالرسول واسطة بين الله وبين خلقه بهذا المعنى، أي إنه المبلغ أحكام الله إلى الخلق، ولا سبيل لأحد إلى معرفة تلك الأحكام إلا بواسطته.

وأما ما فهمه أنصار الفكر الصوفي من الوسيلة بحيث يتفرغ المتوسل لخدمة المقدس المتوسل به، والسعي في رغباته وشهواته معتقداً أن تحقيق رضوان الشيخ هو أقرب سبيل لتحقيق رضوان الرب، فإنه يمثل انحرافاً في الفهم وبعداً عن منهج السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم[1].

**التنبيه الثاني**: أن معنى قول عمر: "إنا كنا نتوسل إليك بنبينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا". وقول معاوية: "اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود": نطلب منه أن يدعو لنا، فكأن عمر يقول: إننا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله

(١) انظر المصدر السابق (ص ٢٤٠-٢٤١).

عليه وآله وسلم ونطلب منه أن يدعو لنا، ونتقرب إلى الله بدعائه، والآن - وقد انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى - ولم يعد من الممكن أن يدعو لنا، فإننا نتوجه إلى عم نبينا العباس ونطلب منه أن يدعو لنا، وليس معناه أنهم كانوا يقولون في دعائهم: اللهم بجاه نبيك اسقنا، ثم أصبحوا يقولون بعد وفاته عليه الصلاة والسلام: اللهم بجاه العباس اسقنا؛ لأن مثل هذا دعاء مبتدع ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة، ولم يفعله أحد من السلف الصالح[1]، ولأن جاهه صلى الله عليه وآله وسلم ثابت حيّاً وميتاً، فلو كان التوسل بجاهه ونحوه معلوماً في عرف السلف لم ينصرف عمر عنه إلى العباس.

يقول شيخ الإسلام: "وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته"[2].

**قلت**: ويتضح من ذلك أن التوسل برجل صالح مقيد بقيدين:

١ - أن يكون المتوسل به حيّاً حاضراً، وهو ما يوضحه توسل عمر بالعباس بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك توسل معاوية بيزيد الجرشي. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما التوسل بدعائه وشفاعته - كما قال عمر - فإنه توسل بدعائه لا بذاته، ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بعمه العباس، ولو كان التوسل بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس، فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته، بخلاف التوسل

(١) انظر: "التوسل" للألباني (ص٤١)
(٢) "قاعدة جليلة" (ص ٨٠-٨١).

الذي هو الإيمان به والطاعة له فإنه مشروع دائماً"[1] وقال أيضاً: "إن التوسل به حيّاً هو الطلب لدعائه وشفاعته، وهو جنس مسألته أن يدعو لهم، وهذا مشروع، فما زال المسلمون يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته أن يدعو لهم، وأما بعد موته، فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء، لا عند قبره ولا عند قبر غيره كما يفعله كثير من الناس عند قبور الصالحين"[2].

٢ - أن المتوسل به لا بد أن يقوم بعمل ما، وهذا يؤكد أن التوسل ليس بذاته وإنما هو بدعائه وتضرعه إلى الله، وهو ما يوضحه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم - عندما توسل الأعرابي بدعائه - : "اللهم أغثنا، اللهم أغثنا" رافعاً يديه، كما في رواية مسلم، وكذلك قصة استسقاء معاوية وأهل الشام بيزيد حيث رفع يديه يدعو ورفعوا أيديهم للدعاء.

أما قول القائل: اللهم إني أسألك بجاه فلان، وفلان غائب عنه أو ميت فإنه عبث لم يعرفه الأئمة المقتدى بهم؛ لأن فلاناً إن كان صالحاً أو وجيهاً فصلاحه وجاهه له هو، وإنما يقصد أملاً في كونه مجاب الدعوة لما كان ظاهر حاله الصلاح والتقوى، وفي التنزيل: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

**التنبيه الثالث:** أن الرجل الصالح الذي يطلب منه الدعاء، لا يشترط أن يكون أفضل عند الله ممن يطلب منه الدعاء، بل يكفي أن يكون من أهل

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٢).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١/٣٢٦).

الصلاح والتقوى حسب ما يظهر للناس؛ ولذا أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمر أن يطلب من أويس القرني أن يستغفر له، وعمر أفضل منه، لكنه كان صالحاً باراً بأمه[1].

بل وطلب عليه الصلاة والسلام من أمته أن يسألوا له الوسيلة، بقوله: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة..." الحديث رواه مسلم[2].

وهذا الطلب منه عليه الصلاة والسلام وإن كان المقصود منه تعليم الأمة ما ينتفعون به في دينهم - فهو يدل في الجملة على عدم اشتراط أن يكون المتوسل به أفضل من المتوسل، وفي هذا درس تربوي عظيم؛ لأن المسلم إذا علم أن طلب الناس الدعاء منه لا يدل بالضرورة على أفضليته، كان في ذلك عون له على الابتعاد عن العجب والغرور والتكبر على الخلق.

**بعض شبهات المجيزين لما لا يجوز من التوسل:**

إذاً تقرر أن أنواع التوسل المشروع ثلاثة:

١ - التوسل بأسماء الله وصفاته.

٢ - التوسل بالعمل الصالح.

٣ - التوسل بدعاء رجل صالح.

---

(١) انظر قصة أويس في: صحيح مسلم (٤/١٩٦٨-١٩٦٩).

(٢) في الصلاة ١/٢٨٨

فليعلم أن كل ما وراء ذلك فهو غير مشروع؛ لأنه لم يرد فيه دليل شرعي تقوم به الحجة، وقد أنكره العلماء المحققون في العصور الإسلامية المتعاقبة، ولم ينقل عن أحد منهم القول بجواز شيء من ذلك إلا ما ذكر عن الإمام أحمد أنه قال بجواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره، بأن يقول: "اللهم إني أتوسل إليك به" وهو مقتضى إحدى روايتين عنه، والرواية الأخرى هي الموافقة لقول سائر الأئمة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وغيرهم من الأئمة[١].

ولا شك أن الصواب مع الذين حظروا التوسل بذات مخلوق مطلقاً، لعدم ورود دليل شرعي في جواز التوسل بذات المخلوق أو بجاهه أو بحقه ولعدم وجود ما يشهد له من أعمال الصحابة، قال أبو حنيفة: "لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: أسألك بمعاقد العز من عرشك"، وبنحوه، قال أبو يوسف حيث قال: "... و أكره أن يقول: بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام"[٢].

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الله يسمع الدعاء بواسطة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنه الوسيلة والواسطة".

**فأجاب**: الحمد لله، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد، وطاعته والصلاة والسلام عليه وسيلة للعبد في قبول دعائه وثواب دعائه فهو صادق، وإن أراد أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى مخلوق، أو يقسم عليه به، أو أن

(١) انظر: "مجموع الفتاوى" (١/ ١٤٠).

(٢) انظر: "الدر المختار" (٢/ ٦٣٠) و"الفتاوى الهندية" (٥/ ٢٨٠).

نفس الأنبياء بدون الإيمان بهم وطاعتهم وبدون شفاعتهم وسيلة في إجابة الدعاء، فقد كذب في ذلك، والله أعلم"[1].

يقول الشيخ عمر الفوتي: "قد روي عن مالك أنه قال: لا يتوسل بمخلوق أصلاً"[2].

وعلى هذا جرت فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالرياض.

حيث ورد إليها سؤال عن التوسل بحياة بعض الصحابة عند الدعاء فأجابت:

"**أولاً**: الدعاء بجاه رسول الله، أو بجاه فلان من الصحابة أو غيرهم أو بحياته لا يجوز؛ لأن العبادات توقيفية ولم يشرع الله ذلك، وإنما شرع لعباده التوسل إليه سبحانه بأسمائه وصفاته وتوحيده والإيمان به، وبالأعمال الصالحات، وليس بجاه فلان وفلان، وحياته، فوجب على المكلفين الاقتصار على ما شرع الله سبحانه، وبذلك يعلم أن التوسل بجاه فلان وحياته وحقه من البدع المحدثة في الدين، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"[3]. والله ولي التوفيق"[4].

(١) "مجموع الفتاوى" (١٣٩/١).

(٢) "الرماح" (١٤٨/١) مع "الجواهر".

(٣) البخاري ح٢٦٩٧ مسلم: ص١٣٤٣

(٤) "فتاوى اللجنة الدائمة" (٨٧/١-٨٨) الفتوى (رقم ٨٨١٨).

وأما ما جرت عليه عادة المتأخرين من الصوفية وأضرابهم في التوسل بذوات الأحياء والأموات وبجاههم وحقهم والاستعانة بأسمائهم عند الدعاء فلا ريب أنها من البدع التي تؤدي إلى الشرك، ولكن لهم في ذلك شبهات لا بد من دحضها وبيان بطلانها، وهي شبهات كثيرة لكننا نختار أكثرها شبهاً بالأدلة لمناقشتها وبيان الحق فيها ليقاس عليها ما دونها في الثبوت والدلالة.

**الشبهة الأولى:** حديث الضرير[1]: عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: ادع الله أن يعافيني. فقال: "**إن شئت دعوت لك وإن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لآخرتك**". قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه، فتقضى لي، اللهم شفعه في، وشفعني فيه. قال: ففعل الرجل فبرأ" رواه الترمذي، وقال: "حسن صحيح غريب" وابن ماجه، وأحمد، والنسائي، والطبراني في الصغير، والحاكم، وقال: "صحيح على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي، وأقره ابن تيمية والبيهقي وقال: "رويناه في كتاب الدعوات بإسناد صحيح"، وصححه أيضا الألباني[2].

(١) هذه الشبهة توجد مفرقة في كتب التصوف، كـ"طبقات" الشعراني، "جواهر المعاني"، "الرماح"، "جامع كرامات الأولياء"، و"شواهد الحق" للنبهاني ونحوها، فلم أنقل كلماتهم في الاستدلال بها لعامل الإيجاز.

(٢) جامع الترمذي: في الدعوات، باب (١١٩) (٥/٥٦٩ ح٣٥٧٨)، وسنن ابن ماجه في إقامة الصلاة، باب (١٨٩) (١/٤٤١ ح١٣٨٥)، "المستند" (٤/١٣٨)، "عمل اليوم والليلة" (ص٤١٧-٤١٨)، "المعجم الصغير" (١/١٨٣-١٨٤) "المستدرك" (١/٣١٣) و"قاعدة جليلة" (ص١٩١-١٩٥) و"دلائل النبوة" (٦/١٦٦-١٦٨)، و"صحيح الجامع" (ح١٢٧٩) و"التوسل"(ص٧٠).

فذهب القوم إلى أن هذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو غيره من الصالحين، وبحقه حيّاً وميتاً.

**الجواب:** والحق أنه لا دليل لهم في هذا الحديث مطلقاً، لأنه في غير محل النزاع. فهؤلاء يريدون أن يجوزوا التوسل به مطلقاً حياً وميتاً بذاته، ويظنون أن توسل الأعمى وغيره من الصحابة في حياته كان بمعنى الإقسام به على الله، أو بمعنى أنهم سألوا الله بذاته أن يقضي حوائجهم، ويظنون أنه ليس من شرط التوسل بالرجل الصالح أن يدعو هو للمتوسل، ويعتقدون أن كل من سأل الله بنبي أو برجل صالح سواء أكان بذاته أم بحقه أم بجاهه فقد توسل به كما توسل به ذلك الأعمى، وقول هؤلاء - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - باطل شرعاً وقدراً، فلا هم موافقون لشرع الله، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله[1].

والحديث بعيد عن هذا المعنى، بل هو يرجع إلى النوع الثالث من التوسل الجائز، أعني التوسل بدعاء رجل صالح، والدليل على ذلك من أوجه أكثرها من الحديث نفسه:

**الأول:** أن الأعمى إنما جاء أساساً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليدعو له، ويؤيد هذا أمران:

أ - أنه لو قصد هذا الصحابي الضرير التوسل بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بجاهه أو بحقه لما كان ثمت داع إلى المجيء، بل كان يكفيه أن يقعد في بيته ويدعو ربه بقوله: اللهم إني أسألك بجاه نبيك وبحقه ومنزلته عندك أن تشفيني، ولكنه رضي الله عنه لم يفعل هذا؛ لأنه كان يعلم أن التوسل بالرجل الصالح معناه طلب دعائه.

(١) انظر:"مجموع الفتاوى" (١/٣٢٤).

ب - قوله: "ادع الله أن يعافيني" فهذه العبارة صريحة في أن هذا التوسل إنما هو طلب للدعاء من الوسيلة لا غير.

**الثاني**: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعده بالدعاء مع توجيه النصح له بما هو أفضل له في الآخرة، وذلك في قوله: "**إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخرت ذلك**"، ولما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم خير من وفى بوعده - وقد وعده بالدعاء - مع إصرار هذا الصحابي على طلب الدعاء بقوله: "فادعه" علمنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا له ولا بد، ولو لم يفعل لكان مخلفاً للوعد، وهو خلق يستحيل في حقه.

غير أنه عليه الصلاة والسلام - وهو يدعو له - وجهه إلى النوع الثاني من التوسل المشروع وهو التوسل بالعمل الصالح ليجمع الخير من أطرافه، فأمره أن يحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين(١)، ثم يدعو لنفسه، وهذه كلها أعمال صالحة أرشده إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدافع رحمته وحرصه على أن يستجيب الله تعالى دعاءه(٢)، ولم يكتف بالدعاء له.

وعلى هذا يعلم أن القصة كلها تدور حول الدعاء، وليس فيها رائحة دليل لما يزعمون من التوسل بالذات والجاه.

**الثالث**: أن في الدعاء الذي علمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إياه، أن يقول: "اللهم فشفعه فيَّ"؛ قال الألباني: "وهذا يستحيل حمله على

---

(١) كما في رواية ابن ماجه وأحمد والحاكم والبيهقي.

(٢) انظر: "التوسل" للألباني (ص٧٢).

التوسل بذاته صلى الله عليه وآله وسلم أو جاهه أو حقه، إذ المعنى: اللهم اقبل شفاعته فيّ، أي اقبل دعاءه فيّ أن ترد على بصري، والشفاعة لغة الدعاء"(١).

وكذلك قوله في آخر الحديث: "و شفعني فيه" قال الألباني: "أي اقبل شفاعتي، أي دعائي في أن تقبل شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم، أي دعاءه في أن ترد علي بصري، هذا الذي لا يمكن أن يفهم من هذه الجملة سواه"(٢).

وقال أيضاً -مشيراً إلى هذه الجملة -: "و هي من الأدلة الكثيرة على أن التوسل والتوجه المذكور في الحديث إنما هو بدعائه صلى الله عليه وآله وسلم، لأن معناها: اقبل شفاعتي، أي في دعائه. وكذلك قوله: "فشفعه فيّ" أي اقبل شفاعته أي دعاءه فيّ. وهذه الزيادة من الكنوز، من عرفها استطاع أن يطيح بشبهات المخالفين"(٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "والفرق ثابت شرعاً وقدراً بين من دعا له النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين من لم يدع له، ولا يجوز أن يجعل أحدهما كالآخر. وهذا الأعمى شفع له النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فلهذا قال في دعائه: "اللهم فشفعه فيّ" فعلم أنه شفيع فيه... فهو طلب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو له، فأمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يصلي ويدعو هو أيضاً لنفسه ويقول في دعائه: "اللهم فشفعه فيّ"؛ فدل ذلك على أن معنى قوله: "أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد" أي بدعائه

(١) "التوسل أنواعه وأحكامه" (ص٧٣-٧٤).

(٢) المصدر السابق (ص٧٤).

(٣) "صحيح الجامع": التعليق على الحديث (رقم ١٢٧٩).

وشفاعته كما قال عمر: "اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبيك فتسقنا"(١).

فالحديثان معناهما واحد، فهو صلى الله وآله وسلم علَّم رجلاً أن يتوسل به في حياته، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلاً عنه. فلو كان التوسل به حيّاً وميتاً سواء، والمتوسل به الذي دعا له الرسول كمن لم يدع له الرسول، لم يعدلوا عن التوسل به - وهو أفضل الناس وأكرمهم على ربه وأقربهم إليه وسيلة - إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله"(٢).

**الرابع**: أن هذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعائه المستجاب، وما أظهره الله ببركة دعائه من الخوارق، فإنه بدعائه عليه الصلاة والسلام لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره، لا بتوسل الأعمى بذاته وجاهه كما يزعم المغرضون، ولذلك أخرج المصنفون هذا الحديث في "دلائل النبوة" كالبيهقي وغيره، وهذا دليل على أن السر في شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ويؤيده أنه لو كان السر في دعاء الأعمى وحده وتوسله بذات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجاهه دون دعائه لكان كل من دعا به من العميان مخلصاً يعافى من وقته أو بعد حين، ولو كان الأمر كذلك لا بد أن تكون عادة عميان الصحابة وغيرهم من التابعين جارية على هذا النوع من التوسل(٣).

(١) تقدم تخريجه (٢/٢٤٠).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١/٣٢٥).

(٣) انظر: "التوسل للألباني" (ص٧٥).

يقول ابن تيمية رحمه الله: "وكذلك لو كان كل أعمى توسل به ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى، لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا - مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله، وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع، وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره، وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات، وتيسير العسير، وإنزال الغيث بكل طريق ممكن - دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه"[1].

**الشبهة الثانية:** استدلالهم بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾** [المائدة: ٣٥].

حيث رأوا أن المقصود بالوسيلة هنا ذوات الصالحين من الأنبياء وغيرهم، وجاههم وحقوقهم عند الله، فيُقصدون بالدعاء والاستغاثة والاستعانة سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً، حاضرين أم غائبين[2].

**والجواب:** هو ما بيناه سابقاً أن معنى الوسيلة في القرآن والسنة وفهم السلف إنما هو العمل الصالح، وأن ذلك يتفق مع ما فسر به الآية أئمة التفسير.

ولم ينقل عن أحد من المفسرين المعتمدين أنه فسر هذه الآية أو غيرها بما حملها عليه المتأخرون من التوسل بذوات المشايخ، بل وقصدهم بالدعاء والاستغاثة والاستعانة.

(١) "مجموع الفتاوى" (٣٢٦/١) و"قاعدة جليلة" (ص٢٦٠).

(٢) انظر مثلا: "جواهر المعاني" (٢١٧/١).

قال الألوسي: "واستدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد، والقسم على الله تعالى بهم بأن يقال: اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا، ومنهم من يقول للغائب أو الميت من عباد الله تعالى الصالحين: يا فلان ادع الله تعالى ليرزقني كذا وكذا، ويزعمون أن ذلك من باب ابتغاء الوسيلة... وكل ذلك بعيد عن الحق بمراحل"(١).

فإذا تبين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو المكلف ببيان كل ما أنزل عليه، وعلم أنه قام بكل ما كلف به خير قيام، وأنه لم ينقل عنه شيء مما له صلة بإقرار توسلات هؤلاء، ولا عرف أصحابه التوسل بهذا المعنى ولا غيرهم من خيار السلف، أهل القرون الفاضلة، وأن أحداً من المحققين من أهل اللغة والتفسير لم يفهم من هذه الآية مثل هذه التوسلات المبتدعة، فإذا تبين هذا ظهر فساد قولهم وبطلان شبهتهم.

**الشبهة الثالثة**: تمسكهم ببعض الأحاديث الواهية ذات الدلالة في موضع النزاع:

لقد تمسكوا بكم وافر من الأخبار التي يلتقطونها من هنا وهناك، ويتداولونها على أنها أدلة على مشروعية التوسل بالذات والجاه، وهي جميعها لا تسلم من قدح إما في دلالتها وإما في ثبوتها، وفي هذا المقطع سوف أعرض لمثالين من تلك الأحاديث التي يتمسكون بها، أما أحدهما فقد مثلت به لوروده في بعض كتب السنة التي تحتوي على كثير من الأحاديث الصحيحة، وأما ثانيهما فلشهرته وانتشاره في الأوساط الصوفية، فلا تكاد تطلع على كتاب

---

(١) "روح المعاني" (٦/١٢٤-١٢٥).

صوفي تعرض لمسألة التوسل إلا وتجد ذلك الحديث مستدلاً به على مشروعية التوسل بالذات والجاه.

**الحديث الأول**: روي عن عمر بن الخطاب مرفوعاً أنه: "لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي. فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً "لا إله إلا الله محمد رسول الله" فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم. إنه لأحب الخلق إلي، ادعني بحقه، فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك". رواه الحاكم وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذا الكتاب" وتعقبه الذهبي بقوله: "بل هو موضوع، وعبد الرحمن واه" ووصفه في الميزان بأنه "خبر باطل". وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "و أما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث، وقالوا: إن الحاكم يصحح أحاديث وهي موضوعة مكذوبة"[١].

ومن طريق الحاكم أخرجه البيهقي وضعفه[٢].

قلت: من خلال تقصي كلام العلماء ظهر أن الذي يدل على بطلان هذا الخبر ثلاثة أمور:

(١) "المستدرك" (٦١٥/٢) و"ميزان الاعتدال" (٥٠٤/٢) و"قاعدة جليلة" (ص١٦٩) تحقيق د. ربيع.
(٢) دلائل النبوة" (٤٨٩/٥).

**الأول:** وجود عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في إسناده. واتفق العلماء على أنه ضعيف جداً[1]، بل واتهمه بعضهم بالوضع ونقل الأخبار البينة البطلان، فذكر الشافعي أن رجلاً ذكر لمالك حديثاً، فقال له مالك: من حدثك؟ فذكر له إسناداً منقطعاً، فقال له مالك: اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح"[2]. وهذا كناية عن جرح شديد.

ومن أعجب تناقضات الحاكم وفداحة أخطائه أنه ذكر عبد الرحمن هذا فقال: "روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه"[3]. فإذا كان هذا حال عبد الرحمن عند الحاكم فكيف يحكم على حديث تفرد به بالصحة؟

**الثاني:** جهالة الإسناد إلى عبد الرحمن بن زيد كما أشار إليه الذهبي بقوله "رواه عبد الله بن مسلم الفهري لا أدري من ذا"؟[4].

**الثالث:** أن هذا الخبر مناقض للقرآن في موضعين:

١ - فيه التصريح بأن الله تعالى إنما غفر لآدم بتوسله بحق محمد عليهما الصلاة والسلام، وقد أخبر الله تعالى أنه غفر له بكلمات تلقاها منه، فقال عز وجل: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾

(١) انظر: "التاريخ الكبير" (٢٨٤/٥)، و"الجرح والتعديل" (٢٣٣/٥-٢٣٤) و"طبقات ابن سعد" (٤١٣/٥)، و"الضعفاء والمتروكون" للنسائي (ص١٥٨) ترجمة (٣٧٧)، و"المجروحين" لابن حبان (٥٧/٢).

(٢) "حلية الأولياء" (٢٣٠/٦).

(٣) "المدخل إلى الصحيح" (١٥٤/١ رقم٩٧).

(٤) "تلخيص المستدرك" (٦١٥/٢) مع "المستدرك"، انظر: "التوسل" للألباني (ص١١٣).

[البقرة: ٣٧] وقد ورد تفسير هذه الكلمات في القرآن نفسه فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢، ٢٣].

وهذا هو المعتمد في تفسير تلك الكلمات؛ لأن القرآن أولى ما يفسر به القرآن(١).

نعم لو صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن آدم عليه السلام دعا بدعاء آخر فغفر له لوجب المصير إلى اعتقاد أنه دعا بهذا وهذا. لكنه لم يثبت.

٢ - أن فيه قوله: "ولولا محمد ما خلقتك"، ومعلوم أن الله تعالى قد أخبرنا عن الحكمة التي خلق من أجلها الجن وآدم وذريته فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فكل ما خالف هذه الحكمة أو زاد عليها لا يقبل إلا بنص صحيح عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا الخبر باطل لا يصح لمعارضة ما هو ثابت بالقرآن(٢).

(١) وبهذا فسرها ابن عباس، وأبي بن كعب، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء الخراساني، وعبيد بن عمير، وغيرهم. انظر: "زاد المسير" (١/٦٩) و"تفسير المنار" (١/٢٧٩).
(٢) انظر"التوسل" للألباني(ص١١٦).

**الحديث الثاني**: "توسلوا بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم" و يرويه بعضهم بلفظ: "إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي...." إلخ، وهذا الخبر باطل لا أصل له.

قال شيخ الإسلام: "وروى بعض الجهال عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:.... فذكره، ثم قال: وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث"[١].

قال أيضاً: "حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم، ولا هو في شيء من كتب الحديث"[٢].

قال الألباني: "هذا باطل لا أصل له في شيء من كتب الحديث ألبتة، وإنما يرويه بعض الجهال بالسنة"[٣].

**الشبهة الرابعة**: القياس. يقولون: "إن التوسل بذوات الصالحين وأقدارهم أمر جائز ومشروع؛ لأنه مبني على منطق الواقع ومتطلباته، فإن الواحد منا إذا كانت له حاجة عند عظيم من أهل الملك والوزارة فهو لا يستطيع أن يذهب إليه مباشرة، بل نبحث عمن يعرفه ويكون مقرباً إليه، فنجعله واسطة بيننا وبينه، فإذا فعلنا ذلك استجاب لنا، وهذا الأمر نفسه ينطبق على علاقتنا بالله

---

(١) "قاعدة جليلة" (ص٢٥٢).

(٢) نفس المصدر (ص٢٨٤) وانظر: "روح المعاني" (١٢٧/٦).

(٣) "التوسل: أنواعه وأحكامه" (ص١١٧)، قلت: لم أجده في شيء من المصادر الحديثية بعد بحث شاق، فالحق ما قاله أهل العلم لا ما تداوله الجهال والمبتدعة.

تعالى - كذا يزعمون - فهو أعظم العظماء وأكبر الكبراء ونحن مذنبون عصاة، بعيدون لذلك عن جنابه، وعليه فلا يليق بنا أن ندعوه مباشرة، لأننا نخاف أن يردنا خائبين؛ ولذا نلجأ إلى الصالحين من الأنبياء والأولياء، لقربهم من الله، ونتوسل بجاههم وأقدارهم وبذلك يجيب دعاءنا مراعاة لمقامهم[١].

وردًا على هذا القياس نقول إنه قياس باطل وفاسد الاعتبار من أوجه:

**الوجه الأول:** أنه قياس تمثيل يتضمن تشبيه الخالق بالمخلوقين، وهو ظلم فادح لا تخفى وخامة عاقبته، فإن الله تعالى خالق المخلوقين، قيوم السموات والأرض، أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، فلو شبه بأعدل الناس وأتقى الخلق وأصلح عباده، لكان ظلماً وإلحاداً، فكيف يتجه إذن تشبيهه عز وجل بالظالمين المتسلطين المتجبرين الذين يحكمون ولا يعدلون، وبمصالح رعاياهم لا يأبهون؟ وبالإضافة إلى قبح ذلك في النظر فقد نهى الله عنه وحرمه فقال عز وجل: ﴿**فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٧٤].

قال ابن الجوزي: "أي: لا تشبهوه بخلقه؛ لأنه لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء... ويعلم خطأ ما تضربون من الأمثال، وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطئه"[٢].

وقال ابن كثير: "أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً"[٣].

(١) وممن استدل بهذا القياس على جواز التوسل الممنوع الشيخ منصور بن علي ناصف في تعليقه على كتاب"التاج الجامع للأصول" (٣١٨/١-٣١٩) وشيخ مصري في رسالة إلى الشيخ الغزالي جاء فيها: " جمهور الناس عصاة والله إنما يتقبل من المتقين، فلو ذهب الإنسان إلى ربه وهو موقر بالسيئات لم يجب له سؤالا". "عقيدة المسلم" (ص٨٢).

(٢) "زاد المسير" (٤٧١/٤).

(٣) " تفسير القرآن العظيم" (٨٩٧/٢).

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

يقول شيخ الإسلام[١]: "ومن أثبت وسائط بين الله وبين خلقه - كالحجاب الذين بين الملك ورعيته - بحيث يكونون هم الذين يرفعون إلى الله حوائج خلقه، وأن الله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم، فالخلق يسألون وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك: يسألون الملوك الحوائج للناس، لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه، فهو كافر مشرك، يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل"[٢].

وهذا أمر واضح جلي؛ لأن من قاس الله بخلقه فقد تنقصه وشبهه بالضعفاء؛ فهو لذلك جدير بأن يحبس ويضرب ويستتاب؛ لأنه لم يؤمن بهيمنة الله على عباده وعلمه الشامل وقدرته النافذة[٣].

**الوجه الثاني:** أن قياس أحكام الدين على أمور الدنيا وواقع حياة الناس العملية، يدل على جهل من أقدم عليه وتفوه به واعتقده، إذ ليست هناك قاعدة أصولية شرعية يبنى عليها هذا القياس[٤].

**الوجه الثالث:** أن الوسائط التي بين الملوك وبين عامة الناس إنما يحتاج إلى نشاطهم لثلاثة أمور:

(١) "عزاه الألباني" للإمام العز بن عبدالسلام. "التوسل" (ص١٣٥).
(٢) "رسالة الوساطة" ضمن "مجموع الفتاوى" (١/١٢٦).
(٣) انظر: "أوضح الإشارة" (ص٢٧٩).
(٤) انظر: ن. م (ص٢٧٨).

١ - أنهم يخبرونهم من أحوال الناس ما لا يعرفونه؛ لأن الملوك - كسائر البشر - عاجزون عن إدراك ما وراء جدرهم، فهم في حاجة إلى الوسائط الذين يبلغونهم ما خفي عليهم وما يجهلونه.

أما الله جل شأنه، وعز سلطانه، فليس في حاجة إلى أحد من خلقه حتى يكون له معين أو ظهير أو وزير أو مشير، بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو السميع البصير، وهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، قال لمصطفاه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] "ومن قال إن الله لا يعلم أحوال عباده حتى يخبره بها بعض الملائكة، أو الأنبياء أو غيرهم فهو كافر"(١).

٢ - أن ملوك الدنيا عاجزون عن تدبير رعيتهم ودفع أعدائهم، فلا بد من أنصار وأعوان؛ لذلك يحتاجون إلى أشياعهم وأنصارهم وقراباتهم لحاجتهم إلى نصرهم وقيامهم معهم، فهم لهذا يحرصون على استبقاء ودهم بقبول وساطاتهم لينتفع بعضهم من بعض.

أما الله عز كماله فليس في حاجة إلى أحد، بل هو غني عن العالمين، وخلقه فقراء إليه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

(١) "مجموع الفتاوى" (١/١٢٧).

قال ابن كثير: "أي: ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له"[1].

٣ - أن بعض الملوك ظالم لا يريد نفع رعيته، والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمحرك خارجي يحركه، فإذا خاطبه من يؤثر فيه لشدة حاجته إليه أو لخوفه من عواقب مروقه تحركت إرادة الملك وهمته، واستجاب لذلك المشير في قضاء حوائج رعيته.

أما الله سبحانه وتعالى فهو رب كل شيء ومليكه وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها[2]، وهو الذي خلق الرحمة في قلوب الراحمين، وإرادة الإحسان في قلوب المحسنين، فلا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده، أو يعلمه ما لم يكن يعلم أو يرجوه أو يخافه[3].

**الوجه الرابع:** أن جعل قياس شفاعة الوزراء عند الملوك أصلاً يقاس عليه الدعاء بجاه الصالحين وذواتهم يعد إجراء خاطئاً، وعملاً باطلاً، وقياساً مفارقاً لأصله المدعى؛ وذلك لأن طالب الشفاعة في الأمور الدنيوية إنما يتوجه بطلبه إلى الوزير لا إلى غيره، ومن ثم يتوجه به الوزير إلى الملك.

---

(١) "تفسير القرآن العظيم" (١١٤/٣).

(٢) ورد في حديث عمر بن الخطاب قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "الله أرحم بعباده من هذه بولدها" رواه البخاري في الأدب، باب (١٨) (٩١/٤ ح٥٩٩٩)، ومسلم في التوبة، (باب (٤) (٢١٠٩/٤).

(٣) انظر: "مجموع الفتاوى" (١٢٨/١).

وعليه، أمام أصحاب هذا القياس ثلاثة خيارات لا رابع لها:

١ - أن يطبقوا قياسهم على أصله بالكلية فيتوجهون بالدعاء والطلب إلى الصالحين، فيعبدوا غير الله، وهو شرك مخرج من الملة.

٢ - أن يقولوا: إنما نتوجه إلى الرجل الصالح ليدعو لنا بحكم ما يظهر من حاله، وهذا من التوسل الجائز الذي بيناه، إلا أنه لا يتوافق مع هذا القياس ولا يحتاج إليه؛ لأن أدلته الشرعية متوافرة، والحمد لله.

٣ - أن يقولوا: إننا نتوجه إلى الله بجاه الرجل الصالح وإن كان ميتاً أوغائباً.

**قلت:** وهذا واقع حالهم مع مباينته لقياسهم؛ لأنهم لو طبقوا هذا الواقع على أصلهم المقيس عليه لصار مهزلة يضحك منها الصبيان؛ فإن مثل من يدعو الله ويتوسل بجاه الأنبياء والصالحين كمثل من يذهب إلى الرئيس أو الوزير مثلاً ويقول: يا سيادة الرئيس أسألك بجاه الوزير الفلاني أن توظفني، أو كمن يطلب وظيفة الوعظ أو الخطابة ويقول لوزير الأوقاف أسألك بحق أبي حنيفة، أو بجاه الشافعي، أن تسند إلي وظيفة الوعظ والخطابة.

ولا شك أن هذه مهزلة لا يقدم عليها عاقل يعي ما يقول، ويعرف كيف يتصرف، ولا ريب أن الرئيس - أو الوزير سوف يحكم على هذا المتوسل بالحماقة واختلال العقل[1].

---

(١) انظر: "الدين الخالص" (٢/١٨٧) الهامش.

**الوجه الخامس:** أن ما زعموه من أن العاصي - نظراً لكثرة ذنوبه - ليس له اللجوء إلى الله مباشرة، وأن الأولى به أن يصطحب أحد المقربين قبل مناجاة رب العالمين أن ذلك كلام لا أصل له في الإسلام قط، لأن إبليس - رمز العصاة ورأس الملعونين - دعا ربه مباشرة فأجيبت دعوته ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦ - ٣٧](١).

وبهذا يتبين فشل كل محاولاتهم الاستدلال بالقرآن والسنة والقياس، والله تعالى الموفق.

**تنبيهات:**

**الأول:** أن القول بعدم مشروعية التوسل بجاه الرجل الصالح لا ينبغي أن يفهم أنه يستلزم القول بنفي جاهه عند الله، بل إن أهل السنة والجماعة المتمسكين بكل ما ثبت شرعاً يعلمون علم اليقين أن أولياء الله تعالى الذين آمنوا بما أنزل على رسله وعملوا الصالحات، والتزموا كلمة التقوى في كل ما يفعلون، لهم عند ربهم مقامات ودرجات لا يدانيهم فيها غيرهم، ويعلمون أن جاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين، ولكنهم يعتقدون - اعتقاداً جازماً - أن معرفة جاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومقامه لا يكفي إلا إذا انضاف إلى تلك المعرفة احترامه وتقديره بإطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدود شريعته وسنته،

(١) انظر "عقيدة المسلم" (ص٨٣).

وذلك هو موقفهم تجاه كل مسائل الدين، فلا يعبدون ربهم إلا بما شرع، ولهذا لما لم يثبت شرعاً جواز التوسل بالذات والجاه اجتنبوه، وحذروا منه، وابتعدوا عنه؛ لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به..."الحديث، رواه الشافعي، ومن طريقه البيهقي، وروى عبد الرزاق نحوه بلفظ: "ما تركت شيئًا يقربكم من الجنة، ويباعدكم عن النار إلا وقد بينته لكم" إسناده ثابت كما قال الألباني(1).

وبما أنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بالتوسل بالجاه والذات علمنا يقيناً أنه ليس مما أمر الله به، وليس مما يقرب من الجنة ويباعد من النار.

**الثاني**: لقد أخطأ بعض أهل العلم ممن لم يشتهر بالتصوف الغالي في مسألة التوسل فيحسن التنبيه على أخطائهم تكميلاً لأطراف هذه المسألة:

**أولاً**: ذهب الشوكاني إلى جواز التوسل بجميع الصالحين من أهل الفضل أحياء وأمواتاً، مؤولاً ذلك بأنه ليس توسلاً بذواتهم بل بأعمالهم الصالحة، فيقول: "إن التوسل إلى الله بأهل الفضل والعلم هو في التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة، إذ لا يكون الفاضل فاضلاً إلا بأعماله، فإذا قال القائل: اللهم إني أتوسل إليك بالعالم الفلاني، فهو باعتبار ما قام به من العلم" ثم استدل بحديث أصحاب الغار(2)، ثم قال: "فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز، أو كان شركاً كما يزعمه المتشددون في هذا

---

(١) "ترتيب مسند الشافعي" (٢/١٨٩)، و"السنن الكبرى" (٧/٧٦)، و"المصنف" (١١/١٢٥ ح٢٠١٠٠)، "التوسل" (ص١١٨- ١١٩).

(٢) تقدم تخريجه .

الباب... لم تحصل الإجابة من الله لهم ولا سكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم"[1].

وللرد على هذا الكلام نقول:

أ - لا خلاف بين أهل العلم في مشروعية توسل المرء بعمله، لكن المردود هو توسل الإنسان بالذوات، وحديث أصحاب الغار الذي استدل به الشوكاني ليس دليلاً على ما يدعيه من جواز التوسل على الإطلاق، إذ ليس في الحديث إلا توسل الإنسان بعمله لا بعمل غيره، وعليه فقياس عمل من يقول: اللهم إني أتوسل إليك بالعالم الفلاني بعمل أصحاب الغار قياس مع الفارق، ومن ثَمَّ فاسد الاعتبار.

ب - أن قول القائل: اللهم إني أتوسل إليك بفلان، مع إرادة ما قام به من العمل يعد إطلاقاً موهماً؛ لأن المقصود منه يخالف ظاهره، وقد نهانا الله عن استعمال لفظ موهم لأمر غير جائز، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

قال صديق حسن: "و في ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص، وإن لم يقصد المتكلم بها هذا المعنى المفيد للشتم سدّاً للذريعة، وقطعاً لمادة المفسدة"[2].

جـ - أما استدلاله بحصول الإجابة فأمر عجيب من مثل الشوكاني.

(١) "الدر النضيد" (ص ٦٠٥).

(٢) "فتح البيان في مقاصد القرآن" (١/١٩٧).

**أما أولاً**: فلأن الله تعالى استجاب لهم، لأنهم لم يتجاوزوا المشروع الذي هو التوسل بأعمالهم لا بأعمال غيرهم؛ ولذلك أقر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عملهم ولم ينكر عليهم.

**أما ثانياً**: فلأن مجرد حصول المطلوب لا يصلح دليلاً، ولهذا تجد حتى المشركين الذين لا نزاع في شركهم لدعائهم غير الله واستغاثتهم به ونذرهم وذبحهم له، تجد أن حاجاتهم قد تقضى استدراجاً من الله، أو إغواء من الشيطان.

يقول الآلوسي: "ولا يغرنك أن المستغيث بمخلوق قد تقضى حاجته، وتنجح طلبته، فإن ذلك ابتلاء وفتنة منه عز وجل، وقد يتمثل الشيطان للمستغيث في صورة الذي استغاث به، فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث به، هيهات، هيهات، إنما هو شيطان أضله وأغواه، وزين له هواه، وذلك كما يتكلم الشيطان في الأصنام ليضل عبدتها الطغام. وبعض الجهلة يقول: إن ذلك من تطور روح المستغاث به، أو من ظهور ملك بصورته كرامة له، ولقد ساء ما يحكمون"[(١)].

د - أن التوسل بذات الشخص الذي ظاهره الصلاح مظنة لأن يصحبها اعتقاد أن إجابة الدعاء إنما حصلت بسبب هذا التوسل.

وهذا الاعتقاد ربما غلا بصاحبه فيتوجه إلى الشخص نفسه بالدعاء والاستغاثة فيقع في الشرك، فيكون من اللائق سد هذه الذريعة.

---

(١) "روح المعاني" (٦/١٢٩).

والشوكاني نفسه حين أورد قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الرقى والتمائم[1]، والتولة[2]، شرك[3]".

علق عليه قائلاً: "فانظر كيف جعل الرقى والتمائم والتولة شركاً، وما ذلك إلا لكونها مظنة لأن يصحبها اعتقاد أن لغير الله تأثيراً في الشفاء من الداء، وفي المحبة والبغضاء"[4].

قلت: إن التوسل الذي ذهب الشوكاني إلى إباحته ومشروعيته أقوى في تلك المظنة التي تحدث عنها في هذا التعليق؛ لأن احتمال اعتقاد التأثير في الصالحين أقرب من احتمال اعتقاده في التمائم ونحوها كما لا يخفى على متأمل.

أما وصفه مانعي التوسل البدعي بأنهم متشددون فإنه وصف في غير محله، فإن المنع من عمل لم تثبت مشروعيته ليس تشدداً، ولو جاريناه على مذهبه لوصفناه بذلك؛ لأنه يكفر من حلف بغير الله، وعامة أئمة أهل السنة والجماعة - مع إنكارهم على من حلف بالمخلوق - لا يطلقون على الحالف بغير الله كفراً مخرجاً من الملة[5].

يقول الشوكاني: "إن الحلف بغير الله يخرج به الحالف عن الإسلام؛ وذلك لكون الحلف بشيء مظنة تعظيمه"[6].

---

(١) جمع تميمة: خرزة تنظم في السير ثم يعقد في العنق ونحوه "القاموس" مادة (ت م م).

(٢) ما يحبب المرأة إلى زوجها من أنواع السحر"جامع الأصول" (٥٧٥/٧).

(٣) رواه أبو داود (٢١٢/٤ ح٣٨٨٣)، وابن ماجة (١١٦٧/٢ ح٣٥٣٠)، وأحمد (٣٨١/١)، والحاكم (٤١٨/٤) وصححه ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني"تخريج المشكاة" (ح٤٥٥٢).

(٤) "الدر النضيد" (ص٩).

(٥) انظر: "تيسير العزيز الحميد" (ص٥٩٣).

(٦) "الدر" (ص١٠).

# الفصل الرابع

## التقديس الناتج عن الانحراف في فهم الكرامات.

**فيه توطئة وثلاثة مباحث:**

- **المبحث الأول:** معنى الكرامة في اللغة وفي المفهوم الشرعي.
- **المبحث الثاني:** الفرق بين المعجزة والكرامة والخوارق الشيطانية.
- **المبحث الثالث:** مفهوم الكرامة في الفكر الصوفي ومقارنته بمفهوم السلف الصالح.

- **توطئة.**

# مقارنة المنهجين السني والصوفي في الكرامات

## التقديس الناتج عن الانحراف في فهم الكرامات.

**فيه توطئة وثلاثة مباحث:**

- **المبحث الأول:** معنى الكرامة في اللغة وفي المفهوم الشرعي.
- **المبحث الثاني:** الفرق بين المعجزة والكرامة والخوارق الشيطانية.
- **المبحث الثالث:** مفهوم الكرامة في الفكر الصوفي ومقارنته بمفهوم السلف الصالح.

● **توطئة:**

إن هذا الفصل بمباحثه الثلاثة يتناول قضية عقدية مهمة، زلت فيها أقدام وضلت فيها أفهام، وذلك بسبب بعد أكثر الناس عن التوسط فيها، فهم بين مفرّط أنكر الكرامات بالكلية، وبين مفرط غال اعتقد ثبوت الكرامة والولاية لكل من أظهر أمراً خارقاً للعوائد، والقصد ما عليه أهل السنة والجماعة، وهو التوسط بين الإفراط والتفريط، فإلى المباحث:

**المبحث الأول: معنى الكرامة في اللغة وفي المفهوم الشرعي:**

يقال: كرم الرجل كرماً وكرامة فهو كريم، فتكون الكرامة مصدراً. ويقال: كرمه وأكرمه تكريماً وإكراماً وكرامة، فتكون اسم مصدر[1].

نقل اليافعي عن نصير الدين الطوسي الذي سماه الإمام قوله: "والفعل الخارق الذي يظهر على أحد من غير تحد يسمى الكرامة"[2].

---

(١) انظر: "اللسان" مادة (كرم).

(٢) "نشر المحاسن الغالبة" (ص١٣).

وهذا التعريف قاصر غير مانع؛ لأن من شأن الساحر أن تظهر على يديه خوارق للعادات، من غير أن يتحدى، لعلمه أن هناك غيره من السحرة والمشعوذين والمستدرجين.

وعرف الجرجاني الكرامة فقال: "هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقروناً بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً، وما يكون مقروناً بدعوى النبوة، يكون معجزة"(١).

وجملة القول في توضيح معنى الكرامة في الشرع أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وسيره على سنن محكمة مطردة لا تتخلف ولا تتعارض، وربط المسببات بأسبابها، والنتائج بمقدماتها، وأودع في الأشياء خواصها، فجعل النار - مثلاً - للإحراق، والماء للإرواء، والطعام للإشباع... وهكذا، ثم إن هذا النظام الكوني البديع المتناسق يجري على العادة التي ألفناها جارياً عليها، فإذا حصل أن رأينا المسبب من غير أسبابها، ووجدنا أن النتيجة لم ترتبط بمقدماتها كان ذلك خرقاً لهذه العادة المألوفة، فيبقى النظر فيمن حصلت على يديه هذه الخارقة من حيث الصلاح وعدمه، وفي هذه الخارقة هل يصلح ظهورها على يد ولي أو لا، وفي الغرض الذي ظهرت هذه الخارقة لأجل تحقيقها. وبنتيجة هذا النظر الشرعي المحض نتمكن من الحكم على الخوارق، عما إذا كانت كرامة أم معجزة أم أنها استدراج أم من الأحوال الشيطانية.

وعلى هذا نرى أن أجمع تعريف للكرامة أنها: "أمر خارق للعادة يجريها الله على يد ولي من أوليائه قاصر عن النبوة في الرتبة، معونة له على أمر ديني أو دنيوي"(٢).

---

(١) "التعريفات" (ص١٨٤) وانظر: "الكواكب الدرية" للمناوي (٨/١).

(٢) انظر: "شرح العقيدة الواسطية" (ص١٦٨) و"الصوفية نشأتها وتطورها" (ص٦٥).

وتعريف الجرجاني بالرغم من أنه قريب من هذا الذي ترجح عندنا، إلا أن قوله: "و ما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة" يحتاج إلى تقييده إذا صدرت تلك الدعوى في زمن يسوغ فيه تلك الدعوى، وهو الزمن الواقع في فترة ما قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أما بعد مبعثه فدعوى النبوة تكون دجلاً وكذباً، لا معجزة، أضف إلى ذلك طول تعريفه، والحدود تصان عن الإسهاب قدر الإمكان.

**المبحث الثاني: الفرق بين المعجزة والكرامة والخوارق الشيطانية:**

عرفنا معنى الكرامة في اللغة وفي اصطلاح الشرع، وحتى نعرف الفرق بينها وبين المعجزة والأحوال الشيطانية نرى أنه لا بد من إلقاء ضوء كاشف على معنى المعجزة وشرائطها، فنقول:

مادة "عجز" تدور حول الضعف والخور وعدم الحزم[1]. والمعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم، وهي عبارة عن الفعل الذي يدل على صدق مدعي النبوة في وقت تتأتى فيه.

وسميت معجزة؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بما هذا سبيله، فصار كأنه أعجزهم[2].

وذكر أهل العلم للمعجزة شروطاً وأوصافاً لا يدل الأمر الخارق على صدق المدعي للنبوة إلا إذا تحققت فيه، وهي - في حقيقة أمرها - مما يفرق به بين المعجزة والكرامة؛ لأنها متعلقة بدعوى النبوة، نجملها فيما يأتي:

---

(١) انظر: "اللسان" مادة (ع ج ز).

(٢) انظر: "تفسير القرطبي" (١/ ٧٠)، و"شرح الأصول الخمسة"للقاضي عبدالجبار (ص٥٦٨).

**الشرط الأول:** أن يكون الفعل الدال على صدق دعوى النبوة مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، فلو ادعى الرسالة ثم جعل معجزته القدرة على الحركة والسكون، والقيام، والقعود، لم يكن ذلك معجزة له ولا دالاً على صدقه لقدرة الخلق على مثله.

**الشرط الثاني:** أن تكون المعجزة خارقة للعادة المألوفة، فلو قال المدعي للرسالة: آيتي مجيء الليل بعد النهار، وطلوع الشمس من مشرقها، لم يكن فيما ادعاه معجزة له؛ لأن هذه الأفعال - وإن كان لا يقدر عليها إلا الله - لم تفعل من أجله، وقد كانت قبل أن يولد على ما هي عليه في حين دعواه، ودعواه في دلالتها على نبوته كدعوى غيره، فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه.

**الشرط الثالث:** أن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله عز وجل فتقع عقب دعواه، كأن يقول: آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتاً، أو يحرك الأرض عند قولي لها: تزلزلي، فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدى به.

**الشرط الرابع:** أن تقع على وفق دعوى المتحدي بها المستشهد بكونها معجزة له، فلو قال: آية نبوتي، ودليل رسالتي أن تنطق هذه الدابة، فنطقت بأن قالت: كذب وليس بنبي، فإن هذا الكلام دال على كذب ذلك المدعي، إذ لم يقع على وفق ما ادعى.

**الشرط الخامس:** ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة، فإنه لو قام من يعارض مدعي النبوة ثم أتى بمثل معجزته، وعمل بمثل عمله، بطل كونه نبياً، وخرج ذلك الأمر الخارق عن كونه معجزاً، ولم يدل على صدقه؛ ولهذا يقول المولى عز وجل عن القرآن - معجزة نبينا الكبرى -:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] كأنه يقول: إن ادعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعمله فاعملوا كلاماً من جنس نظمه، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله[١].

الشرط السادس: أن يأتي ذلك المدعي في زمن يصح فيه مجيء الرسل، لأنه لو جاء بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم بخوارق الدنيا كلها وادعى أنه نبي مرسل علمنا كذبه بمجرد دعواه، إذ لا نبي بعده عليه الصلاة والسلام كما هو منصوص عليه في القرآن والسنة[٢].

إذا عرفنا المعجزة بأماراتها وأوصافها ظهر لنا الفرق بينها وبين الكرامة؛ لأن كل تلك الشروط تتضمن ركيزة مهمة جداً في التفرقة بينهما:

وهي أن المعجزة لا بد من اقترانها بدعوى النبوة، وهذا فرق يعد أساساً في تمييز المعجزة عن الكرامة.

والفارق الآخر الذي لا بد من اعتباره هو أن الرسول يجب عليه إظهار المعجزة من أجل دعم دعواه إذا توقف إيمان قومه عليها، بخلاف الولي، إذ لا يجب عليه إظهار الكرامة بل يستحسن سترها، فهو يدعو إلى شرع قد ثبت وتقرر على يد رسوله فلا يحتاج إلى إظهار كرامة على أن يتبعه الناس على ما دعاهم إليه، وهذا محل اتفاق حتى عند المتصوفة[٣].

---

(١) انظر هذه الشروط في"تفسير القرطبي" (١/٧٠-٧١)، و"شرح الأصول الخمسة" (ص٥٦٩-٥٧١).
(٢) انظر سورة الأحزاب الآية (٤٠)، وصحيح البخاري حديث (٣٥٣٥)، وصحيح مسلم (١٧٩١/٤).
(٣) انظر: "الرسالة القشيرية" (ص٣٥٤) و"اليواقيت والجواهر" للشعراني (١٠٤/٢).

وبين القرطبي ذلك فقال: "والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شرطها الاستتار، والمعجزة من شرطها الإظهار، وقيل: الكرامة ما تظهر من غير دعوى، والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء فيطالبون بالبرهان فيظهر أثر ذلك"(١).

أما الفرق بين الكرامة والأحوال الشيطانية كالسحر والشعوذة ونحوهما، فيتبين في أمور:

**الأول:** النظر في مدى متابعة صاحب الخوارق للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه قد اتفق أهل العلم على أن الرجل لو طار في الهواء، ومشى على الماء، لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وموافقته لأمره ونهيه؛ لأن مثل هذه الخوارق قد يكون صاحبها وليّاً لله، وقد يكون عدوّاً له، فإنها قد تكون لكثير من الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمنافقين وأهل البدع.

فمتى وجدنا الشخص مخالفاً للشرع متلبساً بالبدع علمنا أن ما يجري على يديه من هذه الأمور ليست بكرامة، بل هي إما استدراج وإما من أعمال الشياطين التي يكون سببها ارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله عليه الصلاة والسلام، فإن المعاصي لا تكون سبباً لكرامة الله، ولا يستعان بالكرامات عليها(٢)، فصاحب الأحوال الشيطانية لما أعرض عن ذكر الله ومتابعة رسوله

(١) "تفسير القرطبي" (٣٠/١١)، وانظر: "طبقات الشافعية" لابن السبكي (٣١٧/٢)، و"الكواكب الدرية" للمناوي (٩/١).

(٢) انظر للمزيد: "تيسير العزيز الحميد" (ص٣٩٦-٣٩٧).

صلى الله عليه وآله وسلم، وافقتهم الشياطين فصاروا من حزبهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وهؤلاء القرناء هم الذين يفعلون لهم تلك الأفاعيل[١]، ويوحون إليهم تلك الأقاويل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فكلما كان الإنسان أبعد عن الكتاب والسنة، وكان أكثر تلبساً بالشرك والبدع والفواحش، كانت الخوارق الشيطانية له أقوى وأكثر، حيث إن الشياطين الذين يقترنون بهم يقومون لهم بكل ما يشتهون بسبب ما يربطهم بهم من الكفر والفسوق والعصيان.

المقصود أن ما يأتي به هؤلاء الفسقة من الخوارق لا تسمى كرامات بل هي استدراج أو أحوال شيطانية.

يقول ابن حجر العسقلاني: "إن الذي استقر عند العامة أن خرق العادة يدل على أن من وقع له ذلك من أولياء الله تعالى، وهو غلط ممن يقوله، فإن الخارق قد يظهر على يد المبطل من ساحر وكاهن وراهب، فيحتاج من يستدل بذلك على ولاية أولياء الله تعالى إلى فارق، وأولى ما ذكروه أن يختبر حال من وقع له ذلك فإن كان متمسكاً بالأوامر الشرعية، والنواهي كان ذلك علامة ولايته ومن لا فلا"[٢].

---

(١) انظر: "مجموع الفتاوى" (١/٨٢-٨٥).

(٢) "فتح الباري" (٧/٤٤٣) عند شرح الحديث (رقم ٤٠٨٦).

وقال السبكي: "إن أهل القبلة متفقون على أن الكرامات لا تظهر على الفسقة الفجرة، وإنما تظهر على المتمسكين بطاعة الله عز وجل"[(١)].

وفي شرح الواسطة: "يجب التنبه إلى أن ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون، من أصحاب الطرق المبتدعة الذين يسمون أنفسهم بالمتصوفة من أعمال ومخاريق شيطانية كدخول النار، وضرب أنفسهم بالسلاح، والإمساك بالثعابين، والإخبار بالغيب، إلى غير ذلك ليس من الكرامات في شيء، فإن الكرامة إنما تكون لأولياء الله بحق، وهؤلاء أولياء الشيطان"[(٢)].

**الأمر الثاني:** أن الكرامات لا يجدي فيها التعلم والتعليم، ولا تكون بمزاولة أعمال مخصوصة يتقنها صاحبها[(٣)]، بخلاف الشعوذة والكهانة والخوارق الشيطانية، فإن المشتغلين بهذه الأمور يكتسبونها بالتعلم والرياضة بالخلوات الطويلة مع الجوع وذكر أسماء الجن والشياطين، وترك كثير من أوامر الشرع كالطهارة والصلاة مع الجماعة، مع التلبس بالنجاسات والفواحش.

قال في "الفهرست": "فأما السحرة فزعمت أنها تستعبد الشياطين بالقرابين والمعاصي وارتكاب المحظورات مما لله جل اسمه في تركها رضى، وللشياطين في استعمالها رضى، مثل ترك الصلاة والصوم، وإباحة الدماء، ونكاح ذوات المحارم، وغير ذلك من الأفعال الشريرة، وهذا الشأن ببلاد مصر وما والاها ظاهر، والكتب المؤلفة فيه كثيرة موجودة... إلى أن قال: قال لي من

(١) "طبقات الشافعية" (٢/٣٢٠)، وانظر:"الكواكب" للمناوي(٩/١).

(٢) (ص١٧٠) وانظر: "التصوف" للسندي (ص٦٠٦-٦٠٧).

(٣) انظر: "الكواكب" للمناوي (٩/١)، و"الدين الخالص" (٥٨٠/٣).

أثق بفضله: إنهم يعملون عجائب من هزائم الجيوش، وقتل الأعداء، وعبور المياه، وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة"[1].

**الأمر الثالث:** من السمات التي تعرف بها الخوارق الشيطانية ما يحصل بين هذه الخوارق من معارضة بعضها لبعض؛ ذلك لأنها ليست خاضعة لتوجيه شرعي ولم تستعمل لتحقيق هدف موحد سليم، فصارت تحت تصرف الأهواء والتوجيهات الشيطانية، فتجد بعضهم يعارض بعضهم الآخر لغرض إبراز المهارات في المكر والخديعة، وهذا يخالف حال أولياء الله تعالى، فإنه لا يمكن أن يقوم ولي الله بمعارضة أولياء الله تعالى وإبطال ما أكرمهم الله به من الكرامات.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهؤلاء العباد والزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة تقترن بهم الشياطين فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله، لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضاً"[2].

**الأمر الرابع:** أن أصحاب الخوارق الشيطانية والأحوال الإبليسية يمتازون بكثرة الكذب والدجل وكثرة الدعاوى للكرامات؛ لأن قصدهم استمالة الجهلة والبسطاء ومن ربوا على تقديس الأشخاص لأتفه الأسباب، بخلاف أصحاب الكرامات، فإن إيمانهم وتقواهم الذي نالوا به درجة الولاية لله تمنعهم من التلبس بالكذب واختلاق الأساطير والمكر والدهاء.

قال ابن تيمية عن أصحاب الأحوال الشيطانية: "ولا بد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلاً أو عمداً، ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم، ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين، وبين المتشبهين بهم من أولياء

(١) محمد بن إسحاق النديم (ص٤٤٣- ٤٤٤).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١١/٢٩٥).

الشياطين. قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] والأفاك: الكذاب، والأثيم: الفاجر"[١].

**الأمر الخامس:** أن أهل الأحوال الشيطانية تتصرف عنهم شياطينهم، وتبطل أعمالهم وشعوذتهم إذا ذكر عندهم ما يطردهم، مثل آية الكرسي، لحديث أبي هريرة: "وكلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام[٢] فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - فذكر الحديث[٣]، فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "**صدقك وهو كذوب. ذاك شيطان**" رواه البخاري وغيره[٤].

وعلى هذا يمكننا أن نتحدى صاحب الأحوال الشيطانية أن يقرأ آية الكرسي وهو يباشر تلك الأفعال، أو أن يبقى لمفعول أعماله أثر إذا قرئ عليها آية الكرسي بصدق وعزيمة.

قال شيخ الإسلام: "و لهذا إذا قرأها - يعني آية الكرسي - الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلها"[٥].

وذلك بخلاف كرامات أولياء الله، فإن القرآن لا يبطلها بل يزيدها قوة على قوة ونوراً على نور.

---

(١) "مجموع الفتاوى" (٢٩٥/١١).
(٢) يقال: حثا إذا رفع بيديه، انظر "اللسان".
(٣) ورد مطولاً عند البخاري (برقم ٢٣١١).
(٤) البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٤٣٨/٢ ح٣٢٧٥)، وانظر أيضاً: (ح٥٠١٠).
(٥) "الفرقان بين الأولياء" (ص١٣٥)، وانظر (ص١٤٢)، و"مجموع الفتاوى" (٢٨٦/١١، ٢٩٣).

**المبحث الثالث: مفهوم الكرامة في الفكر الصوفي ومقارنته بفهم السلف الصالح:**

فيه توطئة ومطلبان:

**المطلب الأول:** الكرامات وضوابطها عند أهل السنة والجماعة.

**المطلب الثاني:** الكرامات عند الصوفية.

- **توطئة:**

بعد أن تقدم لنا بحث معنى الكرامة في اللغة وفي المفهوم الشرعي، وبعد أن عرجنا على ذكر الفرق بين الكرامة والمعجزة من جهة وبين الكرامة والخوارق الشيطانية من جهة أخرى، ننتقل إلى المقصود في هذا الفصل، وهو بيان مذهب أهل الحق في كرامات الأولياء، ومذهب الصوفية المنحرفين في موضوع الخوارق.

وذلك في مطلبين:

**المطلب الأول:** الكرامات وضوابطها عند أهل السنة والجماعة:

إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين والذين اقتفوا آثارهم - وهم أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان - هداهم الله تعالى إلى معرفة الحق واتباعه في جميع المسائل الدينية، فكان نهجهم هو النهج القويم، وطريقتهم هي الوسطية بين إفراط المفرطين وتفريط المفرّطين؛ وذلك لأنهم أكثر الناس حرصاً على معرفة الحق، وأكثرهم اجتهاداً في طلبه والبحث عنه، وأشدهم تمسكاً به عند تحصيله، فقربهم الله تعالى ورزقهم هدايته التوفيقية لإخلاصهم في القصد والنية، واتباعهم للسنة والأثر ووقوفهم في وجه البدعة والمبتدعين، فلا غلو الغالين يجرفهم ولا جفاء الجافين يسري إليهم.

هذا الموقف الوسط الذي عرفوا به هو موقفهم تجاه خوارق العادات، حيث انقسم الناس فيها إلى طوائف، طائفة كذبت بوجود خوارق العادات لغير الأنبياء، وهم المعتزلة ومن دار في فلكهم[1].

وطائفة اعتقدت أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان وليّا لله[2]، وكلا الأمرين خطأ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[3].

أما أهل السنة والجماعة فلا ينكرون الكرامات كما ينكرها المبتدعة، لأنهم يعلمون أن الله الذي وضع الأسباب وخلق المسببات قادر على خرق هذه السنن المألوفة لعبد من عباده، لهذا كان من أصولهم التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات[4].

ويؤمنون بأن الكرامات وقعت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهي كثيرة ألف فيها كتب[5]. وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أنها تبلغ نحو ألف معجزة[6]، وأعظمها معجزة القرآن بلا نزاع. ووقعت الكرامات لعدد من الصحابة، ووردت في روايات صحيحة لا سبيل إلى إنكار مثلها، وذكر ابن تيمية عدداً وافراً منها للصحابة والتابعين وغيرهم من الصالحين[7].

---

(١) انظر: "المغني" للقاضي عبدالجبار (١٥/٢٤١-٢٤٣)، و"الكشاف" للزمخشري (٤/١٥٠).

(٢) وتجد هذا المنحى في الفكر الصوفي كما سيأتي قريبا إن شاء الله.

(٣) انظر:"مجموع الفتاوى" (١١/٢٩٤- ٢٩٥).

(٤) انظر: "الواسطية" (ص١٦٧) وهو في "مجموع الفتاوى" (٣/١٥٦)، وانظر: "تفسير القرطبي" (١١/٢٨) و"الكواكب الدرية" للمناوي (١/٨).

(٥) مثل "دلائل النبوة" للأصبهاني، وللبيهقي وغيرهما.

(٦) انظر: "الفرقان بين الأولياء" (ص١٢٤- ١٢٥).

(٧) انظر: "الفرقان" (ص١٢٥- ١٣٢)، و"مجموع الفتاوى" (١١/٢٧٦- ٢٨٣).

غير أن أهل السنة والجماعة علموا بالاستقراء وبإرجاع كل فرع إلى أصله أنه ليس كل خارق للعادة كرامة، وليس كل من جاء بأمر خارق وليّاً لله تعالى، فإثبات الكرامات يجب تقييده بقيود مميزة، وضبطه بضوابط معينة توضّح حقيقة هذا الأمر وتمنع من التباسه، وهذه الضوابط إذا تأملناها نجد أنها عامة، وخاصة، أجملها جميعاً فيما يأتي:

**الضابط الأول:** أنه ليس من منهج الإسلام ولا من تعاليمه الاعتماد الكلي على الخوارق والكرامات، إذا فقدت فقد معها الإيمان، وإذا وجدت وجد الإيمان، ولهذا كان معجزة هذا الدين العظمى وآيته الكبرى هي القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم تكن دعوته عليه الصلاة والسلام معتمدة على خرق العادات بقدر ما هي معتمدة على الحجة والبرهان.

ويؤيد هذا أنه عليه الصلاة والسلام لما طلبوا منه معجزات مادية وجعلوها شرطاً لإيمانهم أمره الله بالرفض وعدم العدول عن منهجه في الاعتماد على ما يوحى به إليه، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا** ﴿٩٠﴾ **أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا** ﴿٩١﴾ **أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا** ﴿٩٢﴾ **أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا**﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

يقول شيخ الإسلام: "وأنفع الخوارق الخارق الديني، وهو حال نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "**ما من نبي إلا وقد**

**أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"** متفق عليه[1]. وكانت آيته هي دعوته وحجته بخلاف غيره من الأنبياء".

ولهذا كانت حياته وسيرته صلى الله عليه وآله وسلم تجري طبقاً لما تجري عليه عادات البشر ومألوفاتهم مع ما أعطي من شرف المنزلة وعلوها، فلما هاجر إلى المدينة لم يطر في الهواء ولم تطو له الأرض، وإنما سار كما يسير أي راكب آخذاً بعين الاعتبار جميع الاحتياطات التي يحتاجها كل مسافر، وهذا هو الأصل في كل منهج يحمل في ذاته صلاحية البقاء والاستمرار.

أما الاعتماد على الخوارق المادية والإغفال عن آفاق الإعجاز القرآنية فيعد قصوراً في الإدراك وطفولة في التفكير، وهو - مع الأسف - حال كثير من الناس اليوم، فيعتقدون أنه يجب أن تكون القوانين الكونية بيد المجاذيب يتصرفون فيها كيف شاؤوا.

**الضابط الثاني:** أن الخوارق ليست من صنع الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا من صنع غيره من أولياء الله، ولا هي من شأنهم، إنما هي من أمر الله سبحانه وتعالى وفق تقديره وتدبيره وحكمته، وليس من شأن أحد منهم أن يطلبها إذا لم يعطه الله إياها، ولذلك كانت الكرامات تقع للصحابة دون تكلف منهم أو طلب لها برياضات روحيه، وخلوات في الخربان والوديان والأماكن المظلمة، بل كان هديهم على التقوى والعمل الصالح، فإذا ظهرت لهم

---

(١) خ: في الاعتصام، باب (١) (٣٥٩/٤ ح٧٢٧٤)، م: في الإيمان، باب (٧٠) (١٣٤/١) عن أبي هريرة بلفظ"ما من الأنبياء نبي إلا...".

كرامات أخفوها ولم يذيعوها، ولم يفرطوا في التفاؤل مخافة أن تكون مكراً بهم من قبل الشيطان الرجيم.

يقول الشوكاني: "ولا يجوز للولي أن يعتقد في كل ما يقع له من الواقعات والمكاشفات أن ذلك كرامة من الله سبحانه، فقد يكون من تلبيس الشيطان ومكره، بل الواجب عليه أن يعرض أقواله وأفعاله على الكتاب والسنة، فإن كانت موافقة لهما فهي صدق وكرامة من الله سبحانه، وإن كانت مخالفة لشيء من ذلك فليعلم أنه مخدوع ممكور به، قد طمع منه الشيطان فلبس عليه"(١).

وهذا الضابط والذي قبله من الضوابط العامة في هذه المسألة.

**الضابط الثالث:** أن الاستقامة على طريق الهدى، طريق أهل السنة والجماعة - بحد ذاتها - هي عين الكرامة، فإنها سبب الفوز بالسعادة في الحال والمآل، والنجاة من الشقاوة عاجلاً وآجلاً، وهي سبب لتكريم الله تعالى عبده بأنواع الكرامات بما فيها خرق العادات إذا دعت إليها الحاجة واقتضته الضرورة، وبها فقط يعرف ولي الله من ولي الشيطان، أما الخوارق وحدها فلا تدل على ولاية الله، كما سبق تحقيق ذلك؛ ولهذا يقول العلماء:

"كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة"(٢).

---

(١) "قطر الولي" (ص٢٣٤).

(٢) "مجموع الفتاوى" (١١/ ٣٢٠)، و"مجموعة الرسائل والمسائل" (٤/ ١٥٨) عن أبي علي الجوزجاني.

وقالوا: "من ظهر على يديه خارق فإنه يوزن بميزان الشرع، فإن كان على الاستقامة كان ما ظهر على يديه كرامة، ومن لم يكن على الاستقامة كان ذلك فتنة، كما يظهر على يدي الدجال من إحياء الميت، وما ظهر من جنته وناره، فإن الله يضل من لا خلاق له بما يظهر على يدي هؤلاء. وأما من تمسك بالشرع الشريف فإنه لو رأى من هؤلاء من يطير في الهواء أو يمشي على الماء فإنه يعلم أن ذلك فتنة للعباد"[(١)].

ويقول الشاطبي: "ومن هنا يعلم أن كل خارقة حدثت أو تحدث إلى يوم القيامة فلا يصح ردها ولا قبولها، إلا بعد عرضها على أحكام الشريعة، فإن ساغت هناك فهي صحيحة مقبولة في موضعها، وإلا لم تقبل"[(٢)].

**الضابط الرابع:** أن صاحب الكرامة لا بد أن يكون بعيداً عن الدعاوى والكذب، والتكلف، وحب الشهرة؛ لأن ذلك كله يقدح في النية والمقصد، فقد تتحول عباداته ومجاهدته إلى مجرد طلب الكرامة، وذلك من موجبات الخلل في الإخلاص.

وهذا الضابط والذي قبله يخصان صاحب الكرامة، أما اللذان بعدهما فمما يختص بالكرامة نفسها.

**الضابط الخامس:** أن الكرامة إنما تكون في نصرة الدين وإعلاء كلمة الله، فلو حصلت على يد الإنسان خوارق تشبه الكرامات ولم تكن الغاية من حصولها أمراً يحبه الله ويرضاه لم تكن كرامة، بل تنقلب عقوبة ونقمة عليه.

---

(١) "نقض المنطق" (ص١٥) عن أبي محمد العز بن عبدالسلام.

(٢) الموافقات" (٢٧٨/٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "و خيار أولياء الله كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم كذلك"[1].

وقال: "و جميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور - يعني الخوارق - إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله ازداد بذلك رفعة وقرباً إلى الله ورسوله، وعلت درجته، وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش استحق بذلك الذم والعقاب"[2].

هذا الضابط مهم، فإن كثيراً من أصحاب الخوارق إنما يستخدمها فيما لا يرضي ربه، فيستعملها مطية للدهاء والمكر وكسب تقديس الناس له ورفعه فوق منزلته، وإن كان ذلك الخرق مجرد خرق للعادة دون أن تتعلق به فائدة أصلاً.

قال ابن تيمية: "إن الكشف والتأثير إما أن يكون فيه فائدة أو لا يكون، فإن لم يكن فيه فائدة كالاطلاع على سيئات العباد، وركوب السباع لغير حاجة، والاجتماع بالجن لغير فائدة، والمشي على الماء مع إمكان العبور على الجسر، فهذا لا منفعة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهو بمنزلة العبث واللعب"[3].

(١) "مجموع الفتاوى" (١١/٢٧٤).
(٢) نفس المصدر (١١/٢٩٩) وانظر (١١/٣١٩).
(٣) "مجموع الفتاوى" (١١/٣٢٨).

**الضابط السادس:** أن الكرامة نفسها لا تكون معصية لله ولا مخالفة للشرع.

وهذا الضابط له تعلق بالذي قبله، فإن الكرامة إذا كانت لنصرة الدين وإعلاء كلمة الحق، كان من المستحيل أن تكون هي ذاتها مخالفة للشريعة الإسلامية، يقول ابن الجوزي: "وقد لبس إبليس على قوم من المتأخرين فوضعوا حكايات في كرامات الأولياء ليشيدوا بزعمهم أمر القوم، والحق لا يحتاج إلى تشييد بباطل، ثم ساق قصة تروى عن سهل بن عبد الله فيها: أن أحد الأولياء اشترط عليه أن يرمي ما معه من الزاد، حتى يعطيه نور الولاية فتكون له خوارق للعادات، ففعل إلى أن قال سهل: فغشيني نور الولاية. ثم علق عليها ابن الجوزي بقوله: "و يدل على أنها حكاية موضوعة قولهم: اطرح ما معك لأن الأولياء لا يخالفون الشرع، والشرع قد نهى عن إضاعة المال"(١).

قلت: وبهذا البيان لهذه الضوابط الشرعية للكرامة سوف نرى أن انحراف المتصوفة في باب الكرامات سببه مخالفة هذه الضوابط، ويتضح ذلك في المطلب الآتي:

**المطلب الثاني: الكرامات عند الصوفية:**

إن أول انحراف صوفي يلقاه الباحث عندما يقرأ أي كتاب من كتب التراث الصوفي، هو اعتمادهم الكلي على الخوارق، واهتمامهم في مناهجهم على المبالغة في نشر خوارق الشيوخ، وتركيزهم على اختلاق قصص خيالية، وأساطير بالية ليرفعوا بها ما للشيوخ والأولياء من مكانة ومنزلة في نفوس

---

(١) "تلبيس إبليس" (ص٣٧١)، على أنه لا يستبعد وقوع القصة لكن يكون الذي خاطبه شيطانا مريدا.

الأتباع، ويحملوهم على تقديسهم والإذعان لهم وتعظيمهم لدرجة العبادة، فكان من نتائج هذا الاهتمام أن حملوا شيوخهم على طرق كل باب بحثاً عن الخوارق؛ لعلمهم أن الصوفي كلما كان أكثر خوارق، وأشد اتصافاً بالمدهشات، كان أعظم - عند القوم - في باب الولاية والقرب.

ومن الصور الحسية لعناية الصوفية بموضوع الكرامات ما يأتي:

**أولاً:** عقد السراج الطوسي في "اللمع" كتاباً في إثبات الآيات والكرامات، ضمنه سبعة أبواب كلها في الترويج لهذا الموضوع، وحشد ما أمكن من القصص والروايات التي تخدم هذا الغرض، كقوله عن سهل بن عبد الله: "من زهد في الدنيا أربعين يوماً صادقاً من قلبه مخلصاً في ذلك، ظهرت له الكرامات، ومن لم تظهر له فلعدم الصدق في زهده"[١]. إلى غير ذلك من القصص التي يهدف من ورائها إلى تقرير أن الخوارق ملازمة للولاية، وأن بذل الجهد في طلبها مطلب أساس.

وهذا النص وما شابهه يدل على مذهبهم في أن من شرط الولي أن تكون له خوارق ظاهرة.

ونقل نصّاً آخر يقول صاحبه: "إذا رأيت الرجل يشير إلى الآيات والكرامات، فطريقه طريق الأبدال"[٢].

يعني أن أصحاب الخوارق هم الأولياء على أي حال كانوا.

---

(١) "اللمع" (ص٣٩٠)، و"القشيرية" (٢/٦٧٣).

(٢) "اللمع" (ص٤٠٣) عن يحيى بن معاذ الرازي.

**ثانياً**: عقد أبو بكر الكلاباذي في كتابه "التعرف" باباً[(١)] في كرامات الأولياء، أكد فيه أهمية الكرامات، وحث - بطريق مباشر أو غير مباشر - على طلبها[(٢)].

**ثالثاً**: جاء بعد هؤلاء أبو القاسم القشيري فعقد في رسالته[(٣)] فصلاً طويلاً يقع في نحو خمسين صفحة ملأه برواية خوارق شيوخ الصوفية، وسرد غرائب أحوالهم وقدراتهم على التصرف، لا يشك من تأمله أن الحامل على ذلك الجمع والسرد إنما هو الترويج والدعاية، إلى جعل الحصول على الكرامات وجعلها هدفاً أساسياً.

هذه الكتب المتقدمة تمثل نماذج من المصادر الصوفية القديمة التي خصصت أبواباً وفصولاً في دراسة الكرامات والإشادة بأمر السعي في طلبها.

أما أكثر الكتب حشداً لخوارق شيوخ التصوف فهي كتب تراجم الصوفية، فإن واقع هذه الكتب يؤكد أنها ألفت لسرد الخوارق لا غير، ويستوي في ذلك القديم منها والجديد.

ومن نماذج هذا الصنف الأخير، كتاب "حلية الأولياء" لأبي نعيم الأصبهاني، ثم كتاب "لواقح الأنوار" المعروف بـ"الطبقات الكبرى" لمؤلفه عبدالوهاب الشعراني، وكتاب "الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية" لعبدالرؤوف المناوي، وكتاب "طبقات أولياء السودان" لمحمد نور بن ضيف الله،

(١) هو الباب السادس والعشرون.

(٢) انظر: "التعرف لمذهب أهل التصوف" (ص٨٦-٨٨).

(٣) انظر: "الرسالة" (ص٣٥١) فما بعدها. ط دار الجيل.

وكتاب "جمهرة الأولياء" لمحمود المنوفي، وكتاب "جامع كرامات الأولياء" ليوسف النبهاني.

والقاسم المشترك بين هذه الكتب هو: الإسراف والغلو في التركيز على الخوارق جمعاً ونشراً، واعتبارها دليلاً على الولاية، وبذل كل ما في الوسع لاختلاق القصص والروايات القاضية بخروج مشايخ الصوفية عن نطاق البشرية، وتحللهم من قيود الشريعة.

وفيما يأتي أحصر أهم الأوجه التي توضح نظر الصوفية إلى الكرامات وتبيّن الفرق الجذري بينه وبين نظر أهل السنة والجماعة إليها:

**الوجه الأول:** بينما يرى أهل السنة والجماعة عدم الحرص وعدم التعويل على الخوارق مخافة المكر والغرور، تأتي مصادر الفكر الصوفي لتؤكد وتحث على الاهتمام بأمر الخوارق وعدها معياراً لمعرفة الولي، أي أن صاحب الخوارق عند الصوفية لا بد أن يكون له من الولاية نصيب.

نقل الطوسي عن الجنيد شيخ الصوفية قوله: "من يتكلم في الكرامات ولا يكون له من ذلك شيء، مثله مثل من يمضغ التبن"[(١)].

وفي ترجمة أحد المشايخ يقول ابن السبكي: "وقيل إنه ربط وألقي إلى الكلاب والأسود فشمته ولم تتعرض له، فعظم قدره وعلم أنه من أولياء الله"[(٢)].

وهذا يدل على أن الخوارق لا تفسير لها عند هؤلاء غير الكرامة والولاية.

(١) "اللمع" (ص٣٩٠).
(٢) "طبقات الشافعية" (٤٠١/٩).

**الوجه الثاني:** هناك تلازم في حال حدوثها وإلا كانت وجلاً. والخوارق عند أهل السنة والجماعة، فقد يكون الشخص من أولياء الله المقربين، وليس له من الخوارق شيء.

قال ابن تيمية: "فاعلم أن عدم الخوارق علماً وقدرة لا تضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يسخر له شيء من الكونيات، لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه"[1].

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله: "ذكر تعالى أن أولياءه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هم المؤمنون المتقون، ولم يشترط أن يجري على أيديهم شيء من خوارق العادة، فدل أن الشخص قد يكون وليّاً لله وإن لم يجر على يديه شيء من الخوارق إذا كان مؤمناً تقيّاً"[2].

أما الصوفية فقد اشترطوا ظهور الخوارق على الشخص حتى يكون وليّاً من الأولياء، كما سبق نقل ما يدل على ذلك، عن سهل بن عبد الله، ويحيى بن معاذ، ونصوصهم في ذلك كثيرة والمقصود التنبيه.

**الوجه الثالث:** أن أهل السنة والجماعة المعروفين بعدم الحرص على طلب الخوارق، وبالبعد عن الدعايات الفارغة بإظهارها، لم يكن من مذهبهم العجلة في تفسير كل أمر مستغرب بأنه كرامة، وذلك لعلمهم بالدور الذي يمكن أن يلعبه شياطين الجن والإنس في ذلك.

---

(١) "مجموع الفتاوى" (١١/٣٢٣).

(٢) "تيسير العزيز الحميد" (ص٣٩٥).

يقول ابن تيمية: "و الشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان، فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة، ليكشف بها، وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل أو تمريض ونحو ذلك، وتارة يجلبون له من يريده من الإنس، وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك، فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً"(١).

أما الصوفية فإنهم يبادرون إلى نسبة كل غريب صادر من شخص معروف أو مجهول بأنه كرامة لولي، مع أنهم يعرفون بأن الصوفية يعتمدون على الجن في كثير من خوارقهم، فقد نقل عن الجنيد أن الجن كانت تؤنسه، وتعينه في أسفاره وغيرها(٢).

وذكر الخزرجي كذلك أن أبا العباس الحرار كان يستعين بالجن ويرافقها في أسفاره(٣).

ولا ريب أن هذا نابع من تركيز القوم على استجلاب الخوارق، واستماتتهم في طلبها، وكونها شغلهم الشاغل، فلا يعرض لأحدهم شيء مما يستغربه إلا جعله كرامة له.

**ومن أمثلة ذلك:** ما رواه ابن الجوزي بإسناد حسنه عن أبي عمران أن أحد هؤلاء المتصوفة جاء إلى أبي عمران وقال له -وهو يظهر ما اعتقده كرامة -: يا أبا عمران، قد أصبحت اليوم وأنا مهتم بضريبتي، وهي ستة دراهم، وقد أهل

(١) "مجموع الفتاوى" (١/١٧٣- ١٧٤).
(٢) انظر: "الحلية" (٧/٣٩٤- ٣٩٥).
(٣) انظر: "سير الأولياء" (ص٧٣).

الهلال وليست عندي، فدعوت، فبينما أنا أمشي على شط الفرات إذا أنا بستة دراهم فأخذتها فوزنتها، فإذا هي ستة لا تزيد ولا تنقص. فقال: تصدق بها فإنها ليست لك، قال ابن الجوزي: "أبو عمران هو إبراهيم النخعي فقيه أهل الكوفة".

فانظروا إلى كلام الفقهاء وبعد الاغترار عنهم وكيف أخبره أنها ليست لقطة، ولم يلتفت إلى ما يشبه الكرامة، وإنما لم يأمره بتعريفها؛ لأن مذهب الكوفيين أنه لا يجب التعريف لما دون الدينار، وكأنه إنما أمره بالتصدق بها لئلا يظن أنه قد أكرم بأخذها وإنفاقها[(١)].

ومن مبادرتهم إلى تفسير كل ظاهرة غريبة بأنها كرامة ما رواه ابن الجوزي عن أحد الصوفية أنه قال: "احتجت يوماً إلى ضوء، فإذا أنا بكوز من جوهر وسواك من فضة، رأسه ألين من الخز، فاستكت بالسواك وتوضأت بالماء وتركتهما وانصرفت". وعلق ابن الجوزي على هذه الحكاية فقال: "إن صحت دلت على قلة علم هذا الرجل، إذ لو كان يفهم الفقه علم أن استعمال سواك الفضة لا يجوز، ولكن قل علمه فاستعمله وإن ظن أنه كرامة، والله تعالى لا يكرم بما منع من استعماله شرعاً"[(٢)].

ومن ذلك ما حكاه النبهاني[(٣)] " أن الشيخ محمد الشويمي تزوج امرأة، ومات عنها وهي بكر، وقال لها: لا تتزوجي بعدي أحداً فأقتله، فاستفتت العلماء في ذلك، فقالوا لها هذه خصّيصيّ برسول الله صلى الله عليه وآله

(١) انظر: "تلبيس إبليس" (ص٣٦٨).
(٢) انظر: نفس المصدر (ص٣٦٩).
(٣) نقله عن الشعراني ولم أجده في ترجمة الشويمي في"الطبقات"، فلعله في كتاب آخر.

وسلم، فتزوجي وتوكلي على الله، فعقدوا لها على شخص، فجاءه تلك الليلة، وطعنه بحربة فمات من ليلته، وبقيت بكراً إلى أن ماتت وهي عجوز"[1].

قلت: هذه القصة إن صحت لا تعدو كونها مؤامرة محكمة حاكها ذلك الزوج الميت مع قرنائه من الجن أو الإنس، قبل موته، ولا صلة لها بالكرامات؛ لأن الكرامة لا تكون بمخالفة الشرع كقتل الأنفس البريئة لأجل تحريم ما أحل الله، ولكن الصوفية يفسرون كل غريب بالكرامة.

الوجه الرابع: أن أهل السنة الذين لا يرون أن هناك تلازماً بين الولاية وبين الكرمات، لم يحتاجوا إلى الإكثار من رواية كرامات الأولياء فضلاً عن أن يؤدي بهم الأمر إلى الكذب في ذلك.

أما أنصار الفكر الصوفي الذين لا يتصورون ولاية دون خوارق فقد ركبوا كل صعب وذلول، وطرقوا كل باب مسدود، وذهبوا كل مذهب في سبيل نسج القصص، واختلاق الروايات الخيالية، وجمع الأساطير المخجلة، ظنّاً منهم بأن ذلك جالب للاحترام وموجب للتقديس عند الخاص والعام.

ويبدو أن ظاهرة وضع قصص الكرامات والخوارق شاعت في الأوساط الصوفية منذ وقت مبكر، حتى تنبه كبارهم لهذه الحركة المبكرة، فقد قيل لرابعة العدوية: "يا عمة لم لا تأذنين للناس يدخلون عليك؟ قالت: وما أرجو من الناس؟ إن أتوني حكوا عني ما لم أفعل... وقالت: يبلغني أنهم يقولون: إني أجد الدراهم تحت مصلاي، ويطبخ لي القدر بغير نار، ولو رأيت مثل هذا فزعت منه. قيل لها: إن الناس يقولون: إن رابعة تصيب في منزلها الطعام

(١) "جامع كرامات الأولياء" (١/٢٨٤).

والشراب، فهل تجدين شيئاً فيه؟ قالت:... لو وجدت في منزلي شيئاً ما مسسته، ولا وضعت يدي عليه"(١).

وهذه الظاهرة قد تفطن لها كل دارس للتصوف كما فطن لها أساطين التصوف أنفسهم، حتى قال نيكولسن - وهو صوفي مسيحي متخصص في دراسة التصوف المنسوب إلى الإسلام - : "فإذا فشل الأولياء، فإن الخيال الخصب الطوع يخف لنجدتهم، ويصورهم على النحو الذي يجب أن يكونوا عليه، لا على النحو الذي هم عليه، وبتوالي السنين تعاظم أمر الأقاصيص، وزادت غرابتها بالجديد تستمده من محيط الخيال الشرقي، ذلك الخيال الذي لا تدرك أغواره"(٢).

ولنسرد هنا نماذج من كرامات أولياء التصوف المدونة في أسفارهم، وذلك حتى يعلم القارئ إلى أي مدى وصل الخيال الخصب بهؤلاء، وكيف أن الحرص على الجاه، وعلى كسب تقديس الآخرين يمكن أن يقضي على الحياة والمروءة وكل القيم.

يتحدث الشعراني عن ولي إذا شاوره إنسان في شيء، قال: أمهلني حتى أسأل جبريل، ثم يقول له بعد ساعة: افعل أو لا تفعل حسب ما يقول له جبريل بزعمه(٣).

---

(١) "تلبيس إبليس" (ص٣٧٠).
(٢) "الصوفية في الإسلام" (ص١٢٥).
(٣) انظر: الطبقات الكبرى (١/١٣٣).

وعن ولي آخر يدعي أن الله لا يحدث شيئاً في العالم إلا بعد أن يعلمه بذلك على سبيل الاستئذان(١).

وهناك ولي آخر من المجاذيب، تبعه جماعة من الصبيان يضحكون عليه، فقال - مهدداً ملك الموت - : يا عزرائيل إن لم تقبض أرواحهم لأعزلنك من ديوان الملائكة، فأصبحوا موتى أجمعين(٢).

ولا ريب أن اعتقاد صحة هذا جهل قبيح، فإن ملك الموت ليس له من الأمر شيء، ولو كان تصرفه يخضع لتهديدات المجاذيب لكان للموت معنى آخر.

وقيل لأبي يزيد: دخلت إرم ذات العماد؟ فقال: دخلت ألف مدينة لله في ملكه، أدناها ذات العماد، ثم ذكر عدداً من المدن التي دخلها، فذكر "البيت" و"تاويل" و"باريس" و"جايلق" و"جابرس" و"مسك" إلى أن قال: فذات العماد مدينة عاد في اليمن بين أبتر وشحر، يقال: لها سور له ألف باب ما بين البابين فرسخ(٣).

قلت: من تأمل هذه القصة ظهر له أنها مصنوعة من نسج الخيال الصوفي الرحب:

أما أولاً: فلأن الله تعالى وصف إرم ذات العماد بقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر:٨] فمن زعم أنه دخل في ذلك الوقت ألف مدينة أدناها إرم علم بالضرورة بطلان زعمه.

---

(١) انظر:الطبقات الكبرى (١٦١/١) ط دار الفكر.
(٢) انظر: "جامع الكرامات" للنبهاني (٢٨٦/٢).
(٣) انظر: "قوت القلوب" (٧٠/٢).

وأما ثانياً: فلأن مدينة يبلغ سورها ألف فرسخ غير معقول، لأن الفرسخ مقياس طوله (٣) أميال [١]، والميل طوله (١٦٠٩) متر[٢]، أي أن: ١٠٠٠ فرسخ = ٣٠٠٠ ميل، و ٣٠٠٠ ميل × ١٦٠٩= ٤٨٢٧ كم.

ولا يخفى بطلان وجود مدينة بهذه السعة فضلاً عن أن تكون أصغر المدن الألف التي زارها أبو يزيد في زعمهم: ولكنه الكشف الصوفي، وعلمهم اللدني الذي لا يروج إلا على الجهلة والمهووسين.

ومن هذه القصص المستغربة أن وليّاً من أوليائهم كان يختم القرآن ٣٦٠ ألف ختمة في اليوم والليلة[٣].

وهذا الكلام لولا أن العقول قد خدرت فكريّا، وأن النفوس قد مسخت، وأن القلوب قد طبع عليها بخاتم الجهل وقلة الحياء، ما كان ليصدق فيدوّن في كتب الكرامات؛ فإن اليوم والليلة زمن يمتد ٢٤ ساعة، أي ١٤٤٠ دقيقة، و٣٦٠ (ألف ختمة) ÷ ١٤٤٠ = ٢٥٠ ختمة في كل دقيقة، فأين العقول؟

ومثله ما ذكروه من أن أحد أوليائهم ختم في الطواف ١٢ ألف ختمة[٤].

ومن نظائره ما حكاه القشيري عن أحد أولياء الصوفية زعم أنه كان يقرأ في الركعة الواحدة القرآن كله أو سورة الإخلاص عشرة آلاف مرة، ويصلي من الغداة إلى العصر ألف ركعة[٥]. ونظائر ذلك في تلاوتهم كثيرة[٦].

(١) "المعجم الوسيط" (٦٨١/٢).

(٢) نفس المصدر (٨٩٤/٢).

(٣) الطبقات الكبرى (١٢٨/٢)، و"جامع الكرامات" (٣٦٧/٢).

(٤) انظر: "اللمع" (ص٢٢٥)، و"طبقات ابن الملقن" (ص١٤٨).

(٥) "الرسالة القشيرية" (ص٤٢١) ط. دار الجيل.

(٦) انظر: "جامع الكرامات" (٤١١/١)، و"المطرب في مشاهير أولياء المغرب" للتليدي (ص٢٣١).

ومن أعجب كراماتهم المدوّنة في هذه الأسفار ما يتعلق بحياتهم الخاصة، فنجدهم مثلاً يتحدثون عن ولي مكث أربعين سنة لم يأكل ولم يشرب[١]. وعن آخر ينام سبع عشرة سنة، ثم يقوم ليصلي بوضوئه الذي نام عليه[٢].

وآخر يقول لعصاه: كوني إنساناً، فتكون إنساناً، فيرسلها تقضي له الحوائج ثم تعود كما كانت[٣].

وآخر لم يدخل الحمام قط[٤]. قلت: لعله كان يخرج إلى الخلاء.

وآخر لا يدخل الخلاء لقضاء الحاجة إلا في نحو ثلاثة أشهر مرة واحدة[٥].

وآخر بوله كأنه حليب[٦].

وآخر يجر سفينة أخذها الوحل بخصيتيه[٧].

وآخر يجلد خادمه بإحليل نفسه، بعد أن مده فطال طولاً عجيباً حتى رفعه على كتفه، حتى إذا فرغ من الجلد عاد إحليله إلى ما كان عليه أولاً[٨].

ومن الخيال الرحب أن الجيلاني جعل من الأولياء من تسجد له الملائكة[٩].

---

(١) انظر: "جامع الكرامات" للنبهاني (١/٢٩٩).

(٢) انظر: "الطبقات الكبرى (٢/١٠٧) ط. دار الفكر، و"جامع الكرامات" (٢/٤٢٨- ٤٢٩).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٢/١٣٦) ط. دار الفكر، و"جامع الكرامات" (١/٢٩٦- ٢٩٧).

(٤) انظر: الطبقات الكبرى (١/٦٤).

(٥) انظر: "جامع النبهاني" (٢/٣٦٦).

(٦) انظر: "الطبقات الكبرى (٢/١٤٠)ط.دار الفكر.

(٧) انظر: "جامع الكرامات" (٢/٤٦).

(٨) انظر: "جامع النبهاني"(٢/٣٩٦).

(٩) انظر: "الفتح الرباني" (ص٣٧٠).

وأن أحد أوليائهم أمر الشمس بالوقوف فوقفت، حتى قطع المرحلة الباقية من سفره، ثم أمرها بالغروب، فغربت وأظلم الليل في الحال(١).

وأعظم من ذلك كله أن خيالهم جعل الكعبة تطوف بأوليائهم في أماكنهم خارج مكة(٢).

ومن كراماتهم المضحكة أن أحد أوليائهم زعم أنه رأى الخضر يكتب ديواناً يضم أسماء أصحاب الطرق الصوفية(٣).

ومنها أن أحدهم شكا إليه أهل بلده كثرة الفئران، فأصدر مرسوماً بترحيل الفئران فرحلت، ولم ير بعد ذلك اليوم هناك ولا فأر واحد(٤).

أقول: إننا لو ذهبنا نجمع ما ذكره هؤلاء في هذا المجال لأتينا بالشيء الكثير، ولكننا أردنا التمثيل لهذه المخازي التي ابتليت بها أمة الإسلام، وغزاها أعداؤها في عقر دارها بهذا الفكر الذي سرعان ما حول تلك العقلية الإسلامية الإيجابية المبدعة إلى عقلية خرافية خامدة مقهورة، فصار المسلمون يعيشون في أحلك الظلم، إلا من هداه الله للتمسك بالسنة، وقليل ما هم.

**الوجه الخامس:** ذكرنا في الضابط السادس من ضوابط أهل السنة التي تحدد نظرتهم إلى الكرامات أن الكرامة لا تكون معصية لله، ولا مخالفة

---

(١) انظر: "نشر المحاسن الغالية" (ص٣٣) و"طبقات الشافعية" (٨/١٣١).

(٢) انظر: "نشر المحاسن" (ص٣٣)، و"المنجلي في تطور الولي" للسيوطي (١/٢١٧) ضمن "الحاوي".

(٣) انظر: "سير الأولياء" (ص٢٦).

(٤) انظر: الطبقات الكبرى (٢/١٢٦) ط. دار الفكر.

للشريعة الإسلامية، أما أصحاب الفكر الصوفي فلا تنحصر كراماتهم في مجال الطاعات، ولا تتقيد بالصالحات، فلا مانع عندهم من أن تكون الكرامة خارقة لقواعد الشريعة، هاتكة لحرمتها.

وفيما يأتي نماذج لما ذكرت:

**كرامة السرقة والتزوير:** يحكي ابن السبكي عن أحد كبار الصوفية أنه مر في القاهرة بأناس يزدحمون على دكان خباز في سنة غلاء فرقّ لهم، فقال: لو كان معي دراهم لآثرت هؤلاء بها، ثم أحس بثقل في جيبه في الحال، فأدخل يده فوجد الدراهم فدفعها إلى الخباز، وأخذ بها خبزاً ففرقه عليهم. فلما انصرف وجد الخباز الدراهم زيوفا[١].

ويقول الدباغ بكل وضوح: "إن الولي صاحب التصرف يمد يده إلى جيب من شاء فيأخذ منه ما شاء من الدراهم، وذو الجيب لا يشعر"[٢].

ثم يقول: "الفرق بين أخذ الولي صاحب التصرف متاع الناس، وبين أخذ السارق واللص له الحجاب وعدمه، فالولي مشاهد لربه عز وجل مأمور من قبله بالأخذ"[٣].

قلت: أيهما أولى بالحجاب؟ الذي يدعي العرفان ثم يتسلل إلى جيوب الناس لأخذ أموالهم وأكلها بالباطل، أم الذي يفعل ذلك وهو يشعر بأنه مجرم مؤاخذ بما يفعل، ولعله يتوب فيرد الحقوق لأربابها؟

(١) انظر: "طبقات الشافعية" (٩/٢١٣).
(٢) "الإبريز" (ص١٩٥).
(٣) نفس المصدر (ص١٩٦).

أما قوله إن الله يأمر أولياء التصوف بالسرقة فباطل، فإن الله تعالى لا يأمر بالمعصية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[ الأعراف: ٢٨].

**كرامة الرقص مع الأجنبيات:** ذكر ابن ضيف الله من كرامات ولي يقال له صاحب الربابة، أنه كان إذا جاءه الحال أحضر البنات والعرائس والعرسان للرقص، ويضرب الربابة، كل ضربة لها نغمة يفيق فيها المجنون، وتذهب منها العقول، وتطرب لها الحيوانات والجمادات(١).

**أقول:** ما أسهل الكرامة عند هؤلاء، فإن الضرب على الآلات الموسيقية والرقص على أنغامها في جو مختلط بين الرجال والنساء أمر يفعله جميع أهل الفسق والفجور الذين خلعوا لباس الحياء والحشمة عن أنفسهم.

يعلق ابن ضيف الله على هذه الفاقرة فيقول: "هذا الرجل من الملامتية، فرقة من الصوفية يفعلون اللوم في الشرع توبيخاً وهضماً للنفس، ومن أنكر عليهم يعطب"(٢).

وذكر عن ولي آخر أنه كان يزغرد ويرقص، وأنه غصب جارية يقال لها منانة لتعزف له، لأنها كانت خبيرة بجميع أنواع العزف.

وعدّ من كراماته أيضاً أن وليّاً آخر أراد أن يتزوج امرأة مع أختها، فرفضت؛ لأن ذلك محرم شرعاً، فتقدم هذا الولي المشهور بالرقص والغناء

(١) انظر: "طبقات ابن ضيف الله" (ص٩٢).
(٢) نفس المصدر (ص٩٥).

إلى تلك البنت فصار يصفق ويرقص ويغني، حتى كبّ رأسه عليها فضحكت ورضيت[1].

أين الكرامة؟! بل هذه طريقة سافلة في الإقناع، وتوسل بالحرام إلى الحرام.

**كرامة مباشرة الأجنبيات والاطلاع على العورات:**

يقول الشعراني في ترجمة شمس الدين الحنفي: "ودخلت على الشيخ امرأة أمير فوجدت حوله نساء الخاص تكبسه[2] فأنكرت بقلبها عليه، فلحظها الشيخ بعينه، وقال لها: انظري. فنظرت فوجدت وجوههن عظاماً تلوح، والصديد خارج من أفواههن ومناخرهن، كأنهن خرجن من القبور، فقال لها: والله ما أنظر دائماً إلى الأجانب إلا على هذه الحالة، ثم قال للمنكرة: إن فيك ثلاث علامات: علامة تحت إبطك، وعلامة في فخذك، وعلامة في صدرك، فقالت: صدقت والله إن زوجي لم يعرف هذه العلامات إلى الآن، واستغفرت وتابت"[3].

قلت: إن مباشرة الأجنبيات على هذا النحو لا تجوز شرعاً بحال من الأحوال سواء كن على صورة جميلة أم على صورة دنيئة. ثم كيف استجاز أن يطلع على خفايا تلك المرأة الزائرة؟ فيرى صدرها، وتحت إبطها وفخذها؟ والله يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

(١) نفس المصدر (ص ٢١٨- ٢٢١).
(٢) يقال: كبس الجسد أي لينه بالأيدي، "المعجم الوسيط" مادة (كبس).
(٣) الطبقات الكبرى (٢/٨٥).

وعن ولي صوفي آخر أنه "كان إذا رأى امرأة أو أمرد راوده عن نفسه، وحسس على مقعدته، سواء كان ابن أمير، أو ابن وزير، ولو كان بحضرة والده"[1].

وذكر أيضاً أن محمد الشويمي أحد أوليائهم كان يحسس بيده على النساء الأجنبيات، فيشكون أمره لأبي مدين، فيقول: حصل لكم الخير، فلا تتشوشوا[2].

قلت: إذا كان هذا جواب من يتوجه إليه بالشكاوى فقد عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشتكى إلى الله.

وذكر أحد تلاميذ الدباغ من كرامات شيخه عدداً فقال: "و منها أنه وصف لي زوجتي من رأسها إلى قدمها عضواً عضواً ما ظهر منها وما خفي، وكانت كما وصفها.... لم يزد ولم ينقص حتى لو كلفت أنا بوصفها ما وصفتها كما وصف، فلو حضرت والله بين يديه ما زاد فيها معرفة، وكانت منه على مسيرة أربعة أيام ولم يرها قط"[3].

قلت: من يدري لعله زارها مرات ومرات فإن القوم يطيرون ليلاً ونهاراً ويتصورون في عدة صور - كذا زعموا - وعيونهم تخرق الطباق.

ومن ذلك أن أحد تلاميذ الشيخ عدي زعم أنه زار شيخه، فدار الحديث حول كرامات الأولياء، فقال الشيخ: كل شيخ لا يعلم مريده كم ينقلب في الليل

---

(١) الطبقات الكبرى (٢/١١٨).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/٩٢).

(٣) "الإبريز" (ص٢٤).

قلبة ما هو شيخ، ولو أنه في مشرق الأرض أو مغربها، فقال التلميذ في نفسه: هذا أمر صعب، أنا أجامع زوجتي والشيخ ينظر إلي؟ فلما رجع إلى بيته هجر زوجته شهراً كاملاً، فما كان من الشيخ إلا أن دعا تلميذه هذا وزجره قائلاً: أيهما أحب؟ الشيخ يبصر مريده على حلال أو على حرام؟ لا تعد إلى مثلها، يقول المريد فقابلت أمره بالسمع والطاعة[1].

ومنه أن أحد تلاميذ الدباغ قال: "قصدت الشيخ للزيارة فلما جلست بين يديه قال لي: أي شيء كنت تفعل ليلة الأحد؟ فقلت: وأي شيء يا سيدي؟ فقال: حيث كنت تجامع أهلك، وقد أجلست ولدك على الوسادة حيث أبى النوم، وحيث كان القنديل على الصندوق، أو ما علمت أني حاضر معك؟"[2].

وذكر تلميذه أنه لما أراد أن يتزوج ولم يكن عارفاً بخطيبته وصفتها ذهب إلى الشيخ قال: "فوصفها لي بما وجدتها عليه، وذكر لي فيها أموراً لا يعلمها إلا الله، ثم لما عزمت على الدخول قال لي: أنا الليلة أكون عندكم.

فقلت له: وبم أعلم ذلك. فقال لي: إني أفعل لك علامة، ثم لما اجتمعت بالزوجة وكلمتها بعض الكلام، وإذا بالدم يسيل من خياشيمها، فقلت لها: وما بالك؟ فقالت: أنت ضربتني على أنفي فسكتّ عنها وعلمت أنه فعل سيدنا الإمام، ثم ذهبت لزيارته وذكرت له القصة، فقال لي: نعم، ولو لم يهبط ذلك الدم من خياشيمها لمرضت"[3].

(١) انظر: "جامع الكرامات" (٢/٢٩٩).
(٢) "الإبريز" (ص٢٥- ٢٦).
(٣) "الإبريز" (ص٢١).

أقول: أخبرونا يا أمة الإسلام ما هذه الولاية؟ وما هذه الكرامات؟

قوم يباشرون النساء الأجنبيات، ويكشفون عورات الناس ويقتحمون عليهم بيوتهم ومحارمهم، ويحضرون جميع حالاتهم الخاصة، بل إن هم إلا عفاريت من نوع فريد مريد، أم أن الخيال الخصب قد لعب ذلك الدور المعهود؟

**كرامات التعري أمام الناس:**

يذكر الشعراني في ترجمة شيخ اسمه إبراهيم العريان، لأنه كان يطلع المنبر ويخطب عرياناً... فيحصل للناس بسط عظيم، وكان يخرج الريح بحضرة الأكابر ثم يقول: هذه ضرطة فلان، ويحلف على ذلك فيخجل ذلك الكبير منه(١).

أقول: "**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**"(٢).

ولي آخر تحداه ناس أن يشرب بركة مملوءة بالماء، فقال املؤوها، فملؤوها، فقام - وقد أخذه الحال - فوضع فمه في البركة، وأخرج إحليله يخرج منه الماء، يقول النبهاني: "ولم يزل كذلك يدخل الماء من فمه ويخرج من إحليله إلى أن فرغت البركة، وهي من أعظم كراماته، فاعتقده الوالي وغيره اعتقاداً عظيماً"(٣).

ونحوه ولي آخر قال الشعراني في ترجمته: "كان يتكلم بما يستحي منه الناس عرفا، وخطب مرة عروسة فرآها فأعجبته فتعرى لها بحضرة أبيها،

---

(١) الطبقات الكبرى (٢/١٢٤).

(٢) حديث رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب (٥٤) (٢/٥٠١ ح٣٤٨٣، ٣٤٨٤) عن ابن مسعود مرفوعا.

(٣) انظر: "جامع الكرامات" (٢/٢٢١ - ٢٢٢).

وقال: انظري أنت الأخرى حتى لا تقولي بعد ذلك: بدنه خشن، أو فيه برص، أو غير ذلك، ثم مسك ذكره وقال: انظري هل يكفيك هذا؟ وإلا فربما تقولي: هذا ذكره كبير لا أحتمله أو يكون صغيراً لا يكفيك فتقلقي مني وتطلبي زوجاً أكبر آلة مني"(١).

أقول: لولا أنه يوجد في الأمة الإسلامية إلى اليوم جماهير غفيرة تدافع عن هذا الفكر الصوفي وتدعو إليه بحماسة، ما كنا لننقل مثل هذه السخافات والوقاحات، ولعل الواقف على هذا الفسق يعرف قيمة هذا الفكر الذي حقه أن يدفن ولا ينشر، ويطوى ولا يروى.

## كرامات حتى في بيوت الدعارة:

ذكر الشعراني عن أحد أوليائه أنه كان يقيم في المحلة، في خان بنات الخطا - يعني في بيت الدعارة - وكان كل من خرج يقول له: قف حتى أشفع فيك عند الله تعالى قبل أن تخرج، فيشفع فيه وكان يحبس بعضهم اليوم واليومين ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته"(٢).

وليس هذا بغريب من أمر هذا الشيخ(٣)، فإنه - كما يقول الشعراني -: "كان إذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحمارة، ويقول له: امسك رأسها حتى أفعل فيها، فإن أبى شيخ البلد تسمر في الأرض، لا يستطيع يمشي خطوة، وإن سمح حصل له خجل عظيم، والناس يمرون عليه"(٤).

---

(١) الطبقات الكبرى (٢/١٥٩).
(٢) المصدر السابق (٢/١٢٩- ١٣٠).
(٣) واسمه علي وحيش.
(٤) الطبقات الكبرى (٢/١٣٠).

ومن ذلك أن كبير الأولياء مات، فدخل إلى الحرم جماعة يتلألأ النور عليهم بعد منتصف الليل، فطافوا وصلوا خلف المقام، فجاءهم شخص فنعاه إليهم وقال لهم: من يكون موضعه؟ يعني من يستحق النوبة والخلافة بعده؟ فقالوا: حسن الخلبوصي، فقال: أناديه؟ فقالوا: نعم. فقال: يا حسن فإذا هو واقف على رؤوسهم، عليه ثوب معصفر ووجهه مدهون بالدقيق، وعلى كتفه سوط، فقالوا له: كن موضع فلان. فقال: على الرأس والعين.

يقول راوي الخبر الذي كان يرقب الموقف عن كثب: فلما رجعت إلى بلادي قصدته بالزيارة في خان بنات الخطا، فوجدت واحدة راكبة على عنقه، ويداها ورجلاها مخضوبتان بالحناء وهي تصفعه في عنقه وهو يقول لها: برفق فإن عينيَّ موجوعتان، فأول ما رآني مقبلاً عليه، قال مبادراً: يا فلان زغلت عيناك، وغرك القمر، ما هو أنا، فعرفت أنه هو، وأمرني بعدم إشاعة ذلك[1].

وتحدث النبهاني عن ولي صوفي آخر كبير كان يكاشف الناس بأحوالهم، وهو مقيم عند النساء الباغيات[2].

هكذا لا مانع عند هؤلاء من أن يكون نقيب أوليائهم، وصفي كبرائهم متلبساً بالزنا، على الدوام، ويساكن البغايا باستمرار، ألا ما أوسع نطاق دائرة الكرامة والولاية عند الصوفية!

ثم يتساءلون عن سبب انتشار الفساد في الأمة الإسلامية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) انظر: "جامع الكرامات" (٢/٣٨).

(٢) انظر نفس المصدر (١/٥٥٥).

## كرامة إعلان الكفر على المنابر:

إن هؤلاء الأولياء المزعومين لما خرقوا كل العوائد، وانتهكوا كل حرمات الدين، لم يبق لهم إلا أن يعلنوا الكفر أمام الملأ.

قال الخزرجي في ترجمته لأولياء القرن السابع الهجري: "... ومنهم الشيخ الإمام العارف أبو القاسم الأندلسي... وفتح عليه من غير خلوات، ولا كبير معاملات... فكان يترك الصلاة، ويفطر في رمضان... ومما جرى له أنه وقف يوماً على سطح الرباط، ورفع صوته وقال:"لا إله إلا أنا" رددها مراراً، ثم ادعى ذلك صوفي آخر، فمضى الخادم إلى شيخهما، وأخبره بما وقع، فأمره الشيخ أن يخدمهما في زاوية خاصة، ويمنع عنهما الطعام والشراب ثم ينظر حالهما، ففعل الخادم، أما أبو القاسم فقد خرج من الحائط من غير باب، وأما الآخر فبقي إلى أن أسلم الروح ومات[(١)].

**نقول:** هل القدرة على خرق العادة تبرر ادعاء الألوهية؟

ومثل هذا ما ذكره الشعراني عن الشيخ محمد الحضري الذي وصفه بأنه كان يتكلم بالغرائب من دقائق العلوم، من أنه كان إذا قوي عليه الحال تكلم بألفاظ لا يطيق أحد سماعها في حق الأنبياء وغيرهم، وأنه كان يُرى في كذا وكذا بلد في وقت واحد.

ونقل الشعراني عمن جاءهم المذكور يوم الجمعة فسألوه الخطبة. "فقال: باسم الله، فطلع المنبر فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده، ثم قال: وأشهد أن لا

(١) انظر: "سير الأولياء" (ص٨٥).

إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام. فقال الناس: كفر. فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فجلس عند المنبر إلى أذان العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع. ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة فأخبر أهل كل بلد أنه خطب عندهم، وصلى بهم، فعددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة. هذا ونحن نراه جالساً عندنا في بلدنا"[1].

أقول: لو كان سلطان الحق قائماً، ومنهج النبوة حاضراً مطبقاً لم يجرؤ أفاك أثيم على مثل هذا، فضلاً عن أن يعد من كرامات الأولياء، فيدوّن وينشر على أمة الإسلام وشبابها.

هذا، وقبل إقفال هذا الموضوع لا بد من التذكير بأن انحراف الصوفية في فهم الكرامات، ليس خاصّاً بالأوائل منهم[2]، ولا بالمتأخرين[3]، ولكننا نجد جميع الصوفية - حتى المنتسبين منهم إلى الدعوة، وإلى الفكر والثقافة - متورطين في هذا الانحراف: وإليك المثال:

يقول الشيخ سعيد حوى: "وأهم ما ينصب عليه الإنكار ما يحدث لأهل الطريقة الرفاعية، من كون النار لا تؤثر فيهم، ومن كونهم يضربون أنفسهم بالرصاص أو بالسيوف، ولا يؤثر ذلك فيهم، وهذه قضية منتشرة ومشتهرة محسة، وقد تتبعها الكثير من المنكرين، فرجعوا عن الإنكار، والواقع المشاهد أن ما يحدث لهؤلاء لا يمكن أن يكون سحراً؛ لأن السحر جزء من عالم

(١) الطبقات الكبرى (٢/٩٤).

(٢) كالطوسي، والقشيري.

(٣) كالسيوطي، والشعراني، والمناوي.

الأسباب، وههنا لا تجد لعالم الأسباب محلا، كما أنه لا يمكن أن يكون من باب الرياضات الروحية، لأن هؤلاء قد تحدث للواحد منهم هذه الخوارق من دون رياضة روحية أصلاً، بل بمجرد أن يأخذ البيعة عن الشيخ، بل أحياناً بدون بيعة. وقد حدثني مرة نصراني عن حادثة وقعت له شخصيّا... أنه حضر حلقة ذكر فضربه أحد الذاكرين بالشيش[1] في ظهره فخرج الشيش من صدره حتى قبض عليه بيده ثم سحب الشيش منه، ولم يكن لذلك أثر أو ضرر.

إن هذا الذي يجري في طبقات أبناء الطريقة الرفاعية، ويستمر فيهم هو من أعظم فضل الله على هذه الأمة...إلى أن قال: "إن الحجة الرئيسة لمنكري هذا الموضوع هي أن هذه الخوارق تظهر على يد فساق من هؤلاء كما تظهر على يد صالحين، وهذا صحيح. والتعليل لذلك هو: أن الكرامة ليست لهؤلاء بل هي للشيخ الأول الذي أكرمه الله عز وجل بهذه الكرامة، وجعلها مستمرة في أتباعه، فهي كرامة للشيخ الذي هو الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله، وقد يكون استدراجاً في حق بعض أتباعه الفساق"[2].

**وحيال هذا النص نلاحظ الآتي:**

١ - جزمه بأن ما يظهره هؤلاء من الخوارق إنما هي كرامات، لم يعلله بمقنع إطلاقاً؛ لأن نفيه أن تكون بأسباب معلومة عندهم، بالتعلم أو بالرياضة أو بأسباب أخرى غير مقبول؛ لأن ذلك يحتاج إلى معرفة جميع مداخلهم ومخارجهم، وهذا لا يتأتى إلا لمن كان منهم.

---

(١) نوع من السيوف غير المرهفة يلعب بها ويتمرس في المبارزة. "المعجم الوسيط" (٥٠٣/١).

(٢) "تربيتنا الروحية" (ص٢١٧- ٢١٨).

وإذا كان الشيخ سعيد حوى منهم فنتساءل: لِمَ لمْ يقم بقيادة جيش من هؤلاء الذين لا ينفذ فيهم السلاح الناري والحديدي، فيحرر بيت المقدس من نير الاحتلال الصهيوني، علماً بأنه هو الداعية المفكر الذي دعا إلى ذلك التحرير بقلمه.

على أنه ليس من منهج السلف الصالح أن يجزموا بكون أي أمر خارق كرامة، بل كانوا يخافون من الغرور والمكر أشد مخافة.

٢ - أنه جعل من وقوع الخوارق على أيدي الرفاعيين وعدمه قضية، فيذكر أن كثيراً ممن أنكرهم تتبعها فرجع عن الإنكار، ومعلوم أن النزاع الدائر في هذه المسألة ليس حول وقوع الخوارق وعدمه، ولكن حول ما إذا كانت هذه الخوارق كرامات أم أنها أحوال شيطانية، ويبدو لمن تأمل عبارات الشيخ أن كون هذه الخوارق دجلاً وشعوذة أقرب، وإلا فكيف يكون لذلك النصراني كرامات بمجرد حضوره حلقة ذكرهم بلا إيمان ولا إسلام؟

٣ - أنه أثبت إمكان وقوع الكرامة من الفساق باعتبار أن الكرامة للرفاعي لا لمريده الفاسق، وهذا عجيب، فإن الرفاعي نفسه لم يكن يفعل هذه الأفاعيل ولا عرفها، فكيف تنسب إليه؟

يقول الذهبي: "و لكن أصحابه فيهم الجيد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذ التتار العراق: من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات، وهذا ما عرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه، فنعوذ بالله من الشيطان"[١].

(١) "العبر" (٧٥/٣) فيمن مات سنة (٥٧٨هـ).

ثم إن قوله: "وقد يكون استدراجاً في حق بعض أتباعه الفساق" يمثل نقضاً لكل ما بناه قبل، وازدواجاً عجيباً في الفكر، وإلا كيف تكون خوارق بعض الفساق كرامات لشيخهم واستدراجا في حق بعضهم؟ فما الميزان؟

وبعد: فهذا هو ما تيسر لنا جمعه وتحليله من التقديس الناتج عن فهم الكرامات عند المتصوفة، نسأل الله أن يهدي به قوماً ضلوا السبيل، ويسلك بهم صراطه المستقيم، ويزيدنا وإياهم تمسكاً بالكتاب والسنة، وابتعاداً عن البدعة والمبتدعين، وصلّى الله على نبيه محمد وعلى آله وسلم.

# فهرس المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|